محاولة لبناء منهج متكامل للفكر الاسلامي

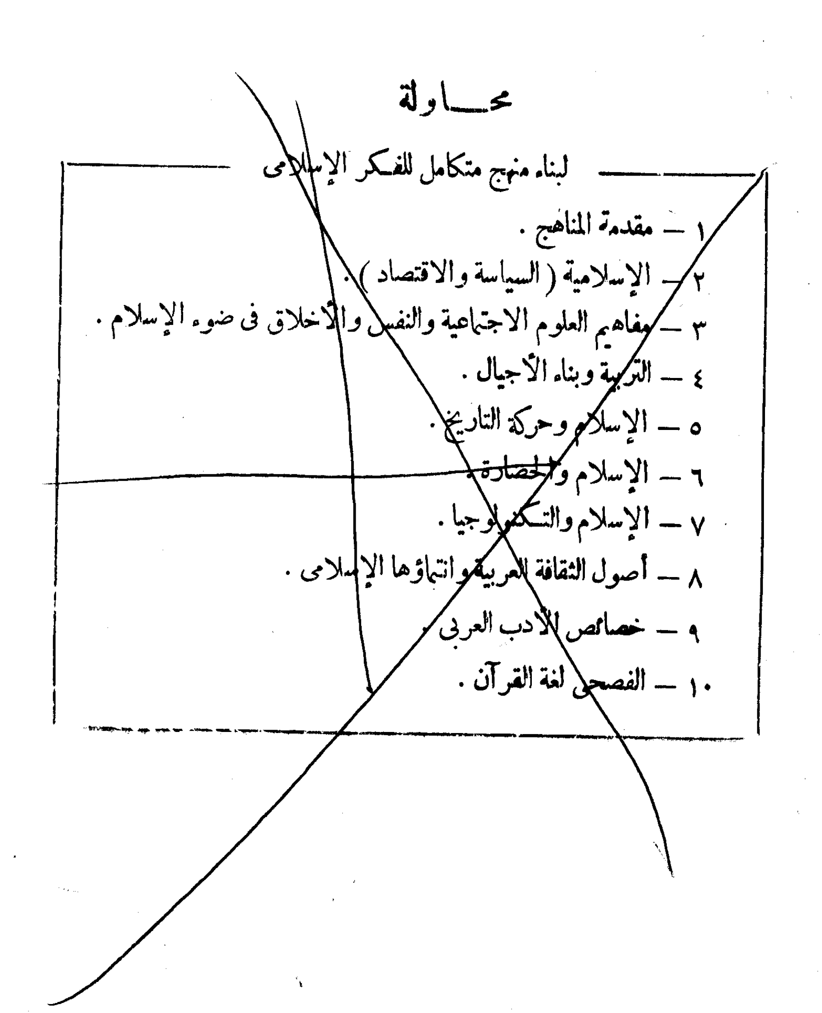
الإسلام والتكنولوجيا

أنور الجندي

دار الاعتصام

محـــاولة

لبناء منهج متكامل للفكر الإسلامى



١ — مقدمة المناهج .

٢ — الإسلامية (السياسة والاقتصاد) .

٣ — مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق فى ضوء الإسلام .

٤ — التربية وبناء الأجيال .

٥ — الإسلام وحركة التاريخ .

٦ — الإسلام والحضارة .

٧ — الإسلام والتكنولوجيا .

٨ — أصول الثقافة العربية وانتماؤها الإسلامى .

٩ — خصائص الأدب العربى .

١٠ — الفصحى لغة القرآن .

يرا

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

ظواهر متعددة تكشف عن أزمة العلم والحضارة فى الغرب وقد استعلنت هذه الأزمة اليوم واضحة صريحة على أيدى أبناء هذه الحضارة أنفسهم تصور فساد اتجاه العلم الحديث وكيف انحرفت به الطريق على نحو جعله عاجزاً تماماً عن أداء رسالته مما يؤدى إلى ضرورة تسليم الأمانة إلى الأمة التى قدمت المنهج العلمى التجريبى إلى البشرية أولا : لتعود مسيرة الإنسانية مرة أخرى إلى طريق الله .

١ — أول هذه الظواهر ، ذلك المؤتمر الذى عقد فى هولندا عن الشباب والعلم فى المجتمع المعاصر حيث تحدث علماء الدول الغربية واليابان فأكدوا عجز العلم عن إنقاذ العالم مما يحيطه من أخطار كالانفجار النووى والإشعاع الذرى وتلويث البيئة والفقر والتخلف الاقتصادى بل أنهم ذهبوا إلى أكثر من ذلك فاعتبروا (العلم) سبباً لهذه المآسى فى العالم . ومن ثم فقد طالبوا بألسنة العلم إلى أن يكون العلم فى خدمة الإنسان والأهداف الإنسانية وأن يخرج العلماء من أبراجهم العاجية ويتجردوا من عبادة الذات ليتحملوا مسئولياتهم الاجتماعية ويشعروا من الأعماق بهذه المسئولية . كما طالبوا بخروج العلم من دائرة احتكار عدد محدود من الدول ليعم نفعه جميع دول العالم وأثار العلماء الهولنديون فى انتقاداتهم مسألة استغلال الدماغ الألكترونى (الكامبيوتر) للسيطرة على الحياة الخاصة للأفراد كما أبدت مجموعة علماء الدول النامية رغبتها فى أن تأخذ (التكنولوجيا الغربية) على أن لا يتعارض هذا الطريق مع مثلهم وأخلاقهم وثقافتهم وأكدت التوصيات التى توصل إليها العلماء بانحياز العلم إلى حد أن التكنولوجيا الحديثة



أصبحت وسيلة فى يد الدول الصناعية الكبرى كى تستطيع أن تبطش وتتجبر وتحكم قبضتها على الشعوب الضعيفة .

وقال باحثون منصفون أنه قد آن الأوان للكشف عن زيف دعوى عبادة العلم واتخاذه طريقاً وحيداً للتفكير والمعرفة وأشاروا إلى أنه من الممكن الوصول إلى الحقائق عن طرق أخرى وقالوا أن غلظة الحواس وشدتها تحول دون تفجر قابليات الإنسان الأخرى وطالبوا بما أسموه « التكنولوجيا اللينة» بدلا من التكنولوجيا المتصلبة الخشنة الموجودة فى عالم اليوم .

ومن خصائص هذه [التكنولوجيا اللينة] الانسجام مع الطبيعة وإرضاء الميول الذاتية للأفراد وأن يخضع التكنيك لإرادة الأفراد لاأن يخضع الأفراد للآلة تعبث بهم كيف تشاء وأن تصبح الآلة لخدمة الإنسان لا لخدمة الإنتاج الذى أضحى هدفاً تصادر على حسابه كل القيم والمثل الإنسانية .

٦ وكذلك تطرقت البحوث إلى عوامل الحروب وتجارة الأسلحة وشهوة السيطرة المستفحلة فى الدول الكبرى وعدم المساواة فى الاستفادة من المصادر الطبيعية وقال عالم اجتماعى أفريقى :

لماذا تكتفون بالحديث عن الانفجار السكانى فى البلدان النامية ولاتتحدثون عن الانفجار الاستهلاكى فى الدول المتطورة . ولاريب أن الانفجار الاستهلاكى هو أهم العوامل التى تحقق التعادل فى عالمنا المعاصر ، لذلك يجب الحد من الاستهلاك العشوائى فى الدول الغربية بدلا من الدعوة إلى تحديد النسل فى الدول النامية .

٧ وشجب الباحثون ماهو سائد من أن البحوث العلمية تتجه حالياً إلى خدمة مصالح تجار الأسلحة ووسائل الدمار وليس إلى سبيل إنقاذ البشرية مما تعانيه من جهل وفقر وأنها تعمل على إثراء فئة معنية على حساب فناء الآخرين .



هذه الأفكار تسجل واقع الغرب اليوم (الربع الأخير من القرن العشرين) وموقفه من العلم والتكنولوجيا والحضارة ، وهو موقف الأزمة طريقاً إلى الإفلاس وإيذاناً بنهاية عصر وبداية عصر .

فإذا قارنا هذا الموقف كله إلى مفهوم الإسلام وجدنا تعارضاً كاملا ووجدنا ضرورة كبرى للبشرية لأن يحكم الإسلام ويسيطر ويقود البشرية ويضع قيم العلم فى إطار ربانى إنسانى قائم على العدل والرحمة وقضاء على ذلك النفوذ الخطير المسيطر بالباطل من أولياء امبراطورية الربا واتباع التلمودية واليهودية العالمية التى خطفت ثمرات العلم الحديث وصهرتها فى أتون الفساد والجريمة والإباحية لتدمر بها البشرية ولقد بدأت قوى الغرب تستيقظ إزاء الخطر ولكنها يقظة متأخرة بعد أن سيطر الفكر التلمودى على العلم والحضارة والمجتمع الغربى واحتواها جميعاً .

وهذا تسجيل لصورة الموقف الذى وصل إليه العصر تجاه التطور الخطير الذى وصلت إليه مقدرات الحضارة فى أيدى القوى الخطيرة :

قوى الصهيونية العابثة بها والدافعة لها إلى طريق الدمار وهى علامة على الطريق الذى ستتخذه البشرية فى مقتبل أيامها .

وفى نفس الوقت تعلو الصيحات الحاقدة بالنيل من الحضارة الإسلامية وتزييف المفاهيم أمام أهل الإسلام وإفساد عقيدتهم فى تاريخهم وقيمهم ، حتى يصيبهم الشك فى مقدراتهم الخاصة وفى عملهم الدائب للخروج من أزمة التخلف وامتلاك إرادتهم بتحكيم كتاب ربهم ولكن أحاداً منهم مازالوا قادرين على قول كلمة حق ، تلك التى قالها (برناردشو) تنبأ بأن الغرب سوف يخضع للإسلام بعد مائة عام وبعض ماقاله كارليل وجوستاف لوبون وجوته ، وقد وقف ارنولد تويمبى من الإسلام وحضارته موقفاً عادلا فى ضوء ماعرف من أطوار الأمم وتاريخ الحضارات .

وإن كان قد عجز فى صلب دراسته أن يتصف الإسلام لأنه كان يصدر عن عقيدة غربية مسيحية تريد أن تعلى شأن الغرب المسيحى وحضارته فى مواجهة حملات اليهودية التلمودية التى قادها ماركس وشبنجلر وماكس نوردو فإنه يقول فى كتابه الأخير الذى نشره قبل وفاته بقايل « أن مستقبل الحضارة الإسلامية متوقف على هذه الأكثرية المؤمنة بتراثها والتى زادها الصراع مع الغرب حيوية ونشاطاً والمؤمل أن هؤلاء الأكثرية سوف يوجهون الطاقة العربية للخلق والإبداع والنمو وبالتالى إلى تجديد شباب الحضارة العربية (أى الحضارة الإسلامية) والعمل على إحلالها المحل اللائق فى الحضارة العالمية .

وأن مستقبل الحضارة العربية لايتوقف على الرجعى الاعتزالى المنكمش ولا على المندفع المائع المقلد وإنما يتوقف على الأكثرية المؤمنة من الجماهير الواعية التى تدرك ذاتها وتعمل على تقوية نفسها لصد السيطرة الغربية والتحرر من الاستعمار بأوسع مظاهره والعمل على تنمية حضارتها الذاتية .

« إن الثقة بالنفس التى تميز بها العرب لم تصل إلى حد التعصب الأعمى أو المغرور أو إلى روح العزلة شأن الحال عند بعض الغربيين فقد تميز العرب بالقدرة على الاختلاط بالآخرين والتعاون مع من لايريد تحديهم أو العمل على إذلالهم .

« أن العرب لايعيشون فى فراغ روحى وحضارى لأن تراثهم الحضارى الغنى بمؤسساته ونظمه وتقاليده وأفكاره يملأ روحهم ويكون ثروة عظيمة إذا أحسن تنميتها وتوجيهها فإنها ستعين على فرصة مستقبل زاهر على أن أهمية التراث فى حياتنا الحضارية لا يكون بالجمود عليه بل فى محاولة تنميته وتطويره ليكون قوة حيوية ملائمة للحياة الجديدة بما تواجه من تحديات ، وأن هذا

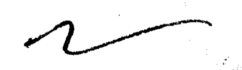
التطوير ينبغى أن يقوم به العرب أنفسهم بوعى وإدراك وهذا هو السبيل الذى مكن العرب فى الماضى فى تكوين دولتهم العظيمة التى دامت قروناً وهو السبيل الذى إذا أتقن تنظيمه سيضمن للعرب مكانتهم فى المجتمع الإنسانى فى المستقبل ثقة فى النفس وسعة فى الصدر ومرونة فى الفكر وعمقاً فى البصيرة وتعاوناً بناءاً » .

ولاريب أن هذه العبارات التى أوردها مختلف العلماء الأوربيين المنصفين هى بمثابة إرهاص للدور الذى ينتظر المسلمين والعرب بوصول التكنولوجيا ومقررات العلم إلى أيديهم ، فإن كل وقائع التاريخ المعاصر القائمة تكشف بوضوح عن هذا الخط الأصيل : عودة الأصالة إلى الذين صنعوا المنهج العلمى التجريبى بعد أن كشف الغرب عن رعونته وفساده وسفهه فى حمل أمانة العلم حيث خرج بها عن طريق الله وطريق الحق إلى الاستعلاء والسيطرة والاستعباد والإفساد فى الأرض .

ولابد لكى يحقق المسلمون امتلاك أمانة العلم والحضارة أن يعودوا إلى تطبيق الشريعة الإسلامية أساساً وبناء مناهج التعليم والتربية على أصول القرآن وحماية الأسرة المسلمة من التدمير وبناء المجتمع الإسلامى على أساس العقيدة ولابد من سحق المذاهب الاجتماعية المادية والوثنية والإباحية وتحرير الحضارة فيها .

عندئذ يصبح المسلمون مصدراً جديداً من مصادر إسعاد البشرية بعد أن يقيموا المجتمع الربانى على أسس ثابتة من حدود الله وضوابطه وقيمه وتطبيق مناهجه فى المجتمع .

هذا المجتمع الربانى الذى وصفه (هاملتون جب) بأنه سيحقق القضاء على الفردية المسرفة والجماعية الشرسة ، والذى قال توينبى أنه سيحقق القضاء على العنصرية الخطيرة والخمر والموبقات .

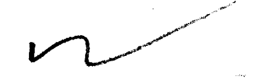


ولقد أشار تويمبى إلى أهمية قيام المجتمع الإسلامى والحضارة الإسلامية وقال أنها يحقق هدفا من أكبر أهداف النهضة هى الإخوة البشرية يقول : إنى لاغبط المجتمع الإسلامى بما تضفيه عليهم الأمة الإسلامية من وحدة حتى يشعر (العربى) أنه فى داره مادام فى بلاد عربية إسلامية فالعراقى والمصرى والنجدى والحجازى والمراكشى والتونسى لايجد فرقا فى الجو الإجتماعى وروح الحياة العربية وعقليتها السياسية بين الرباط وتونس والجزائر والقاهرة وجده ودمشق وبغداد والبصرة ونقول وهذه هى وحدة الثقافة أساس وحدة الأمة ومصدرها الإسلام .

٢ — وظاهرة أخرى تكشف عن فساد اتجاه العلم فى العصر الحديث وكيف انحرف عن طريق الحق ذلك هو إنتحار العلماء المتخصصين فى الانتحار وقد زاد اتساع هذه الظاهرة فى المجتمعات الصناعية المتقدمه خصوصاً فى الوحدات الحضارية (المدن الكبرى) بل لقد اتخذت طابعاً وبائياً إلى حد ما لدى بعض الفئات وكمجرد مثال : (فنانو السينما) وكذا ارتباطها ببعض الظواهر الأخرى وتداخلها معها كظاهرة الادمان على تعاطى المخدرات والجنس والخمر والميسر .

وقد وصلت لدى بعض فئات النخبة المفكرة فى مجتمعات الاستهلاك إلى نوع من فلسفة الخلاص من مسيرة الحضارة المعاصرة . وفى مواجهة تأزمها وافلاس بعض مناحيها . وغلبة روح التشاؤم إلى مايشبه الانتحار الجماعى بابرازهم للجوانب السلبية واصرارهم مع ذلك على السير فى نفس المسيرة الإستلابية والفيلسوف ماركوز فى مقدمة الدعاة إلى هذا المفهوم .

ولكن الغريب كما يقول الدكتور رشدى فكار : هو انتقال العدوى والوباء من الناس إلى العلماء المعالجين لهم ، بمعنى انتحار العلماء المتخصصين فى



دراسة الانتحار وأحدث مثال لذلك انتحار أحد كبار علماء الدراسات الاجتماعية والنفسية فى الولايات المتحدة .

والسر هو أن « المعرفة العلمية الحديثة » رغم عمقها واتساعها وتنوعها لم تستطع حتى الآن أن تعطى النفس البشرية الثقة فى الحياة أو الأمن والطمأنينة وسكينة النفس بقدر ما عمقت لديها عوامل الشك فيها وفى قيمها .

ويقول الدكتور رشدى فكار أن الإنسان الذى اتخذ من إرضاء رغباته وإشباع غرائزه المادية هدفا لاشك سينتهى بانتهائه وأما الإنسان الذى يرى أنه يعيش كما هو أسمى وأن معرفته مهما تعمقت وفاضت فهى قطرة فى محيط المعرفه الغائية : هو الإنسان المتوازن الذى استطاع أن يوازن بين رغباته وقيمه ويعادل بين غرائزه ومثله .

ويقول أن انتحار عالم الانتحار جاكوب مورينو هو شبيه بوفاة عالم طب القلب بالقلب (لونجرا) ووفاة الداعى إلى أن عسل النحل يطيل الحياة ، لأن الإنسان ليس بالمسائل المادية وحدها . ولكنه بشىء آخر يضاف إلى ذلك ويسبقه هو أن تكون وجهة الحياة لله وحده وأن يكون الإنسان فى عمله وحياته وماله لله :

[قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له] .

وهذا هو ما يعبر عنه رشدى فكار بغائية المعرفة . ويقول أن علة وجود الإنسان وماله وروحانيته لاتحدد إلا على مستوى (غائية المعرفة) التى لم تدرك بعد والتى هى رمز لعلم الله وكماله العارف بكل شىء لأنه هو الخالق لكل شىء فالإنسان فى هذه الحياة انما هو فى سبيل قيام المجتمع الربانى وليس لإقامة مجتمع هواه ومطامعه ، ولذلك فإن العلم الذى يتعاطاه الإنسان ويشغف به هو العلم الذى يحاول أن يحقق به ترفه وسعادته ومتعته الخاصة فى الحياة وليس هو



العلم الذى يراد به إسعاد البشرية ورحمتها وعدلها وسلامها وطمأنينتها إلى حقها فى معطيات الله الوافرة .

وإن هذه المعطيات العلمية فى الاكتشافات والإختراعات قد أفسدت الإنسان إفساداً لأنها تنقله إلى حياة الرخاوة والتميع والفساد والإنحلال .

فلا يعود قادراً لأن يدفع عن نفسه التحديات الخطيرة ولأنه ظن أنه هو الذى استطاع أن ينشىء هذه المبتكرات وقال فى ذلك ما قال قارون :

(إنما أوتيته على علم عندى)

فلم ينسب هذا العلم ومعطياته لله تبارك وتعالى بل نسبه إلى نفسه فإن هذا الإنسان فى هذا الخطر الذى يسير فيه يظلم نفسه ظلماً شديدا ولايحقق إرادة الله فى بناء المجتمع الربانى وهو ماكان يقوله العربى المشرك : لقد أمطرنا نبوء كذا ولذلك فسوف تحق عليه كلمة الإستبدال :

(ويستبدل ربى قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم)

٣ — هناك المحاولة الضخمة التى تكشف عن فساد منهج ديكارت ، ونقول أن الفكر الغربى لم يخرج عن نطاق الاصالة التى قررها دين الله الحق بعد أن أخذ المنهج العلمى التجريبى الاسلامى إلا يوم فصل بين الفكرة والتطبيق ، الروح والمادة ، الغيب والشهادة ، هنالك بدا الفكر الغربى ينطلق بعيدا عن الفطرة الجامعة المتكاملة المتمثلة فى الإنسان ومن هذه النقطة بدأ الإنحراف وبدأت « انشطارية » الفكر الغربى التى جنحت به نحو المادية الخالصة .

وكان ديكارت هو أول من ضرب هذا المعول وصدع هذا الصدع ومن ثم نشأ مايسمى بالجبرية التى تنكر إرادة الفرد ومسئوليته واليوم يصحو



الفكر الغربى ليواجه هذه الحقيقة بعد أن أغرق فى التيه باحثاً عن خطأه وانحرافه .

يقول روبير أرون فى كتابه (ملاحظات ضد المنهج) :

إن ديكارت هو أساس العلة . ويقول : أننا نجد فى بعض المآسى التى يعيشها العالم ما أعتبره الخطأ الأساسى عند ديكارت من خلال الفكر مكان الوقائع . نجد أن الأول قد طبق على الثانية وسحقها . وهذه هى خطيئة ديكارت الميتافيزيقية أى إعتقاده أن عمليات الفكر تتطابق مع قوانين العالم .

أن الانسان الديكارتى لايتمتع بالحرية ، وهو سجين التقنيات وعنصراً سلبياً فى المجتمع فقد يبغى من وراءه ترسيخ انسانيته وفرضها على الطبيعة .

وخطيئة ديكارت أنه يجرد الانسان من قدراته على الخلق والابداع وبما قال روبير أرون : من المؤكد أن الانتقال الأكثر طبيعة والتقرب إلى الأمثل من المادة إلى الروح ومن العالم إلى الله ومن العقل إلى الإيمان يتم عبر المتعة الروحية والصلاة » .

٦ وقد كتبت عشرات الأبحاث عن منهج ديكارت منذ أعلنه فى ١٠ نوفمبر ١٦١٩ وإتهمه خصومه بالتشكيك والالحاد والعمل على هدم الجامعات والكنيسة والدولة والكاثوليك يرون أن آراءه مارقة من الدين .

٧ ولقد حاول طه حسين أن يطرح هذا الفكر فى مصر بطريقة زائفة عند ما كتب الشعر الجاهلى وكان يقول لعلماء الأزهر أنتم لاتعرفون منهج ديكارت ولكن الدكتور محمد أحمد الغمراوى رحمه الله تصدى له وكشف زيفه وأعلن أن ما ادعاه منهجاً لديكارت ليس صحيحاً وإنما هو قول محرف وقال العلامة محمد فريد وجدى : أن أعظم مافى منهج ديكارت مأخوذ من الفكر الاسلامى

ومن الغزالى وقد كان طه حسين يريد أن يطرح فى أفق الفكر الاسلامى سموم نظرية الشك الفلسفى واللا أدرية .

ويقول روبير أرون : أن كل مساوىء العقلية المعاصرة والتقنية تجد لها مرجعاً عند ديكارت إذا ما تأملنا ملياً وقبل كل شىء مسار فكره . قد خلف ديكارت أثرا عميقاً فى كثير من العقليات وأخطر آثارة ما ادعـوه بخطيئة الميتافيزيقية (الماورائية) أو خطيئة الأخلاقية وهى الممثلة بشكل من تجريد الايمان وبالتنكب عن الابداع نتيجة للوهم الخادع الذى تتركة الآثار العقلية بل يمكن أن يعثر فى بعض مآسى العالم ما أحسبه خطأ ديكارت الأساسى أى احلال (الأفكار) مكان (الحقائق) ومايتنتج عن ذلك من تبديد الأفكار لقيم الحقائق فخطيئة ديكارت هى إعتقاده أن عمليات الذهن تتطابق مع قوانين العالم .

وهكذا نرى الغرب اليوم يكشف زيف تلك القاعدة الاساسية التى قام عليها الفكر الغربى حين فصل بين القول والعمل وبين النظرية والتطبيق وبين المادى والروحى ثم توالت نظريات الفلاسفة ممزقة هذا النسيج الواحد المتكامل فكانت نظرية فرويد فصلا بين الوعى واللاوعى وجاء دعاة المادية الذين اعتبروا الميتافيزيقا أو عالم الغيب خرافة ، ثم فصل ماركس بين عوامل التاريخ المختلفة وأنكرها فيما عدا العامل الاقتصادى .

وهكذا وقع الفكر الغربى فى التناقض .

وصدق الذى قال : لقد هدم ديكارت ولكنه لم يستطع أن يبنى واليوم لم يعد أمام الفكر الغربى إلا أن يلتمس الطريق الصحيح .

الطريق المتكامل الجامع بين الروح والمادة والعقل والقلب إن كان حقاً يريد أن يصل إلى الحقيقة وما اعتقد أنه يستطيع فقد وصل إلى مرحلة اللاعودة .

ومن وجهة نظر الإسلام فإن مفهوم ديكارت قد أدى إلى حدوث انقسام جوهرى بين الوجود والماهية فى قلب الفاسفة الغربية حيث لايقر الإسلام أن هناك انفصالا بين الوجود والماهية وقد جاء خط سارتر تاليا لذلك بقوله أن الوجود يسبق الماهية .

ومن هنا ركز الفكر الغربى على الإنشطارية المنحرفة التى أقامها فصل الإرادة عن الوجود بينما أن الصحيح هو أن الإرادة لاتنفصل عن الوجود ولا يظهر الوجود إلا مقترنا بالإرادة كما أن الإرادة لاتعنى شيئاً إلا إذا تمثلت فى صورة وجود .

ولعل هذا هو أعمق الفوارق التى نقلت الفكر الغربى من الروحانية الرهبانية الصرفة إلى المادة الضيقة المغلقة دون المرور بالوسطية الإسلامية الجامعة بين الروح والمادة .

أن أصدق مايمثل الفكر الغربى هو أنه لايفرق بين نظرته إلى الأشياء سواء بين المادى والروحى أو بين الهيكل والمضمون أو بين الإرادة والوجود .

٦ ومن ثم فقد انقسم عالم الغرب طويلا بين ماهومادى وماهو روحى أما نحن فى عالم الإسلام فإن عقيدتنا ظلت قادرة على الحفاظ على سلامة تكاملها وشمولها بفضل الدفاع المتصل عن مفهوم التوحيد الخالص بالرغم من كل محاولات مذاهب الفكر الغربى (شعوبية وباطنية ومادية وإباحية) فى العمل على كسر هذه الوحدة الجامعة وتفتيتها .

وفى مفهوم الإسلام : لا انفصال بين العالم المادى والعالم الروحى ولا بين الوجود والإرادة ، ولا ينظر المسلم إلى العالم المادى كأنه منفصل أو مناقض لعالم الروح .

كذلك فإن عالم الإرادة لايناقض عالم الوجود .

ويقرر المفهوم الإسلامى الأصيل أن العالم كله إنما هو قوة واحــــدة ظاهرها وباطنها . عالم الشهادة فيها وعالم الغيب وما الفرق بين الظاهر والباطن فيها إلا فرق فى طريقة الإدراك واستعداد الحواس فهى عالم واحد يسمى جانب منه الوجود ويسمى الجانب الآخر بالارادة أو الروح أو الباطن .

والإحساس بالوجود والايمان به لم يقم فى الإسلام على أساس مبـدأ ذاتى كما فعل ديكارت فى الغرب مما أدى إلى حدوث انقسام جوهرى بين الوجود والماهية .

كما يرفض الاسلام مفهوم ديكارت فى القول بأسبقية الوجود أو أسبقية الماهية وهى ثنائية لايعترف بها ويجعل الوجود هو الارادة والحركة تنتقل من الوجود إلى الإرادة فى عالم الحياة كما تنتقل الطاقة إلى مادة والمادة إلى طاقة فى مجال العلم وبهذا لايوجد فى الفكر الاسلامى أى إحساس بالثنائية أو الازدواج مما عانى منه ومازال يعانى الفكر الغربى الحديث .

وهو ماكان له أبعد الأثر فى مفهوم العلم ومفهوم الفلسفة ونتائجها على المجتمع الغربى وعلى تمزيق النفس الإنسانية وإصابتها بالغثيان والغربة .

وقد حققت هذه النظرة الإسلامية الأصيلة : التناسق والتوازن والتكامل الذى هو عماد الفكر الإسلامى ودعامة الحياة المتحررة من عوامل الازدواج والتمزق والغربة والغثيان مما يقاسى منه الفكر الغربى نتيجة ماأوجب (ديكارت) من فصل بن شطرى نواة الحياة الجامعة المتكاملة .

هذه الظواهر الثلاث فى العصر الحديث علامة على اتجاه الريح ، واعلانـا لهزيمة الغرب فى حمل أمانة العلم إلى البشرية ، وارهاصاً بدور جديد لأمة القرآن .

الباب الأول

الاسلام والعلم

أولا : العلم قبل الإسلام .

ثانياً : مفهوم العلم فى الإسلام .

ثالثا : نقطة البدأ : قل انظروا .

رابعا : ماذا قدم المسلمون .

خامسا : أصول المنهج العلمى : طلب الحق .

سادسا : موقف الغرب : العقوق .

سابعا : سبق علماء المسلمين .

الفصل الأول

العلم قبل الاسلام

ما كان من العلوم قبل الإسلام هو قدر مشترك ساهمت فيه أمم أربعة : هم البابليين والمصريين واليونان والهنود وقد تبادلت هذه الأمم معلوماتها وزادت عليها بما كون تراثا من العلوم الرياضية قبل الإسلام في مجال الحساب والهندسة والجبر وكان لهذه الأمم قدر من علوم الفلك ومعرفة الأجرام السماوية والكواكب والنجوم .

وأكد الباحثون والمؤرخون أن أقدم الآثار الرياضية عرفت في بابل فمصر وانتقلت إلى الإغريق وقد اعتمد المصريون على البابليين والكلدانيين والفينيقيين واعتمد الإغريق على المصريين كما اعتمد الرومان والهنود على من سبقهم من الإغريق وغيرهم ويكاد الإجماع ينعقد على أن العلوم الرياضية ميدان اشتركت فيه القرائح المختلفة وأن نتاجه لاينحصر في أمة من الأمم ، فلكل من البابليين والمصريين والإغريق والهنود أنصبه هامة . وقد أشارت الألواح التي عثر عليها في خرائب بابل أن البابليين كانوا يعرفون شيئا من المتواليات العددية والهندسية والنسبة والتناسب . وكذلك فقد عرف أن المصريين كانوا قد عرفوا ما أطلق عليه نظرية فيثاغورس واستدل على ذلك من وجود مثلثات قائمة الزاوية بالمعنى الهندسي الدقيق في أشكال الأهرام .

وقد سبقوا فيها اليونان بزمن طويل . وأنهم عرفوا المعادلات ، والمتواليات العددية والهندسية . ويختلف الموقف هنا بين المصريين واليونان فالمصريون استعملوا الحساب فى حل مسائل حيوية تتعلق بمعيشتهم بينما تحاشى علماء اليونان استعمال الرياضيات فى الشئون العملية لأنهم كانوا يرون فى الرياضيات قداسة تحول دون استعمالها فى أمور دنيوية مادية .

والثابت أن اليونان أخذوا كثيرا عن المصريين وكانوا على اتصال بالبابليين وأنهم استغلوا فى الهندسة فأقاموا البراهين العقلية والخطوات المنطقية ويعد كتاب اقليدس فى الهندسة أهم كتب هذا العلم أما الحساب والجبر فلم يصل علماء الإغريق بهما درجة الهندسة، وكان فيثاغورس وغيره ينظرون إلى الأعداد نظرة تقديس ويرون أن لها خواصا وأن لكل منها معنى . وقد اعتبروا علم الجبر جزءاً من الحساب وبحثا من بحوثه قبل أن يجعله المسلمون علما مستقلا .

أما الهنود فقد عرفوا بنظامهم العشرى فى الترقيم وكان هذا من أهم الخدمات التى قدموها للحضارة والعالم . وكان لديهم أشكال متعددة للأعداد فلما جاء المسلمون كونوا منها سلسلتين هما المنتشرتين الآن فى أكثر أنحاء المعمورة . وقد اشتغلوا فى المتواليات العددية والهندسة ، وفى الهندسة عرف الهنود ما يتعلق بانشاء المربعات والمستطيلات والعلاقات بين الأقطار والأضلاع [1] .

هذا هو التراث الذى وجده المسلمون أمامهم قبل أن يبدأوا رحلتهم فى مجال العلم وهى رحلة تختلف اختلافا واضحا عن خط ذلك التراث الذى وجدوه وتغايره مغايرة عميقة فليس صحيحا ما يقال من أن دور المسلمين هو أنهم أضافوا وأكملوا ما بدأه غيرهم وإنما القول الحق أن المسلمين تسلموا هذا التراث على أنه « مواد خام » وأعادوا النظر فيه وشكلوه من جديد فى إطارهم الواضح العميق وهو : « التوحيد » .

(١) قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك .

والواقع أن المسلمين تلقوا هذا التراث القديم على أنه مواد منثورة قوامها القياس وقد أعادوا النظر فى هذه المواد جميعها على أساس مفهومهم الجديد « التجريب » فقبلوا منها ما رأوه صالحاً ورفضوا ما رأوه فاسدا وأصلحوا ما رأوه قابلا للإصلاح ثم أقاموا بناءا جديدا كل الجدة يختلف تماما عما كان يعرف اليونان والفرس وذلك هو ما عرف بعد بالمنهج الإسلامى التجريبى وهو الذى قام عليه بناء الحضارة المعاصرة .

وفى سبيل تحليل هذا التراث العلمى قبل الاسلام نجد أمامنا الحقائق الآتية :

أولا : خطأ القول بأن العلم بدأ فى بلاد الإغريق .

ويقول جورج سارطون فى كتابه تاريخ العلم ما يلى : من سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم قد بدأ فى بلاد الإغريق فان المعجزة اليونانية قد سبقتها آلاف الجهود العلمية فى مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرهما من الأقاليم والعلم اليونانى كان احياءاً أكثر منه اختراعا .

ويقول ول ديورانت فى كتابه قصة الحضارة (ح ٢) أن ما ورثه اليونان من الحضارات أكثر مما ابتدعوه وكانوا الوارث المدلل المترف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين وجاءت إلى مدائنهم مع مغانم التجارة والحرب فاذا درسنا الشرق الأدنى وعظمنا شأنه فاننا بذلك نعترف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوربية والأمريكية وهو دين يجب أن يؤدى منذ زمن بعيد .

ثانيا : كان كل ما عند اليونان هو بمثابة معارف قائمة على المنهج القياسى :

« وكانت معرفة اليونان خرافات فى الأكثر ومحاولات فى الأقل وأن ما كان منها صحيحا ثابتا لم يكن يعدو مثله مما كان عند المصريين والبابليين »

فلما جاء المسلمون جعلوا من العلوم علما صحيحا وأنكروا خرافاته وحاولوا إصلاح جهالاته[1] .

من ذلك ما أنكره الغزالى على اليونان من أن يكون فى السماء حيوانا وأن تكون الكواكب أنفس ، وقد كشف المسلمون عن أخطاء سقراط وافلاطون وأرسطو فى الفلسفة وآراء أبقراط وجالينوس فى الطب وكشف جابر بن حيان والجاحظ كثيرا من أخطاء أرسطو كما عارض المفكرون المسلمون رأى أفلاطون فى النفس واصلحوا نظام بطليموس فى الفلك .

ثالثا : اعترف العلماء الغربيون بأن اليونان لم يعرفوا التجريب وكانوا يكرهونه - يقول هـ . ج . ولز فى كتابة خلاصة التاريخ العام :

لم يهتد اليونان مدة اشتغالهم بالبحوث الفلسفية إلى جعل التجربة قاعدة البحث وأساس التنقيب ،

وذهب اليونان إلى تقديس العقل إلى حد جعلهم يكذبون ما لا يتفق معه ولو أيده الحس .

وقد أشار غير باحث إلى موقف اليونان من التجربة والتجريب :

قال الدكتور على سامى النشار : ولقد احتقر اليونان التجربة والتجريب ، وجاء منطق أرسطو أكبر معبر عن روح اليونان ، ولذلك فقد رفضه المسلمون ولم يكن رفضه ناشئا من ضيق أفق وانما كان إعلاناً صادراً عن روح الحضارة الإسلامية : روح القرآن ، الذى دعا إلى وضع منهج ومنطق مختلف فى كل خصائصه عن منطق أرسطو روح الحضارة اليونانية .

وأشار كثيرون إلى أن المسلمين قلبوا العلم اليونانى والفلسفة اليونانية فى بعض وجوهها رأسا على عقب . وأكدوا أن الفكر العملى قبل الاسلام كان مجموعة من الخرافات والاعتقاد بالتنجيم والسحر .

---

(١) عمر فروخ — عبقرية العرب فى العلوم والفلسفة



رابعا : يقرر الدكتور فروخ أن كل ما كان حتى القرن الثالث الهجرى فى بيزنطه من ميراث اليونان لا يأتلف مع تعرف العلم الذى يعرف عن تاريخ الفكر الإنسانى. يقول: فمع أن البيزنطيين ورثوا عن أسلافهم اليونان تراثا علميا ضخما فانهم لم يدرسوا هذا التراث العلمى إلا فى الشروح ثم أنهم كانوا يعدون علوم التعاليم (الطبيعيات والرياضيات) ممهدة إلى درس الفلسفة ولم يدرس البيزنطيون الفلسفة للفلسفة إلا بعد أن تأثروا بلاريب بنهضة الاسلام وهكذا نستطيع أن نجزم ان الروح العلمية ولدت مع العقل العربى مستقلة عن التوراة واليهود وعن الانجيل والنصارى وعن الفلسفة واليونانية والبيزنطية ويقول : ولا أعلم غير الاسلام ديناً حث أتباعه على العلم وأعلن أن العلم لايخالف الدين بل يساعد العقيدة على الرسوخ .

الفصل الثانى

مفهوم العلم فى الاسلام

أن الإسلام يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ويفرض على الأمة أن ترتب أقواماً لتعليم الجهل ، وقد حث الإسلام حثاً متواصلا على العناية بتنمية العقل الإنسانى وإبراز الدور الذى ينبغى عليه أن يؤديه، وقد فضل العلم على العبادة وفضل العلم على إطلاقه وأعلن أنه لاتعارض بين حرية الفكر وبين أن يكون الإنسان متديناً ولاتقتضى حرية الفكر أن يكون الإنسان غير متدين .

وقد علمّ الإسلام العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ، واعتبر الإسلام أن أكبر تحرير للفكر هو تحريره من الوثنيات والمادة ، وقد وصل المسلمون إلى غاية الغايات وظل مجرى عقولهم قائماً على الإيمان بالله وفى الإسلام يزكو العلم بالانفاق وقد أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق على الذين يعلمون أن يبينونه للناس . وكذلك حرص الإسلام المسلمين على استعمال حواسهم الظاهرة فى النظر والتأمل كما حرضهم على طلب العلم والمعرفة والنظر فى الكون والتأمل فى الكائنات والتنقيب عن أسرار الوجود، كما طالب الإسلام بترقيه الشخصية الإنسانية بالضرب فى الأرض وتعرف أحوال الأمم وطبائعها ودراسة ماهى عليه من شرائعها وعاداتها .

كذلك فقد دعا الإسلام إلى الدليل والبرهان وأطلق حرية البحث وحث على الاجتهاد وإدراك الحقائق حتى قرر أن للمخطىء أجران إن أصاب



وأجر واحد إذا أخطأ ، وحرم التقليد . وأنكر أن يتعلم الناس العلم ليباهوا به العلماء أو يماروا به السفهاء ليصرفوا به وجوه الناس .

وحث الإسلام إلى النظر فى الكون وتسخير موارده ونواميسه والسير فى الأرض ودعا إلى الكشف والابتكار وجعل للمبتكرين الثواب وأمر بتعمير الأرض والتنافس فى الصنائع والفنون النافعة — والعلم فى مفهوم الإسلام يزكوا بالإنفاق ويعاقب المسلم على كتمان العلم .

ويقرر الإسلام أن التقدم العلمى والتكنولوجى لايتعارض مع العقيدة ولكنه لايغنى عنها ، أنه نمو فى الجانب المادى وحده ولابد أن يتكامل مع الجانب الروحى .

وأبرز مفاهيم العلم فى الإسلام : المطابقة بين الكلمة والسلوك وربط للعلم بالعمل ولا يحجب العلم عن طالبه ولايستحى صاحبه إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لاأعلم ولايستحى إذا لم يعلم الشىء أن يتعلمه ، والإسلام هو الذى أقام للعلم منهجه ومنطلقه من حرية البحث وصراحة التفكير والتسامح الدينى وهو الذى مهد لصوغ المنهج التجريبى .

وفرق الإسلام بين العلم النافع والعلم الزائد عن الحاجة ودعا المسلمين إلى أن يأخذوا من كل شىء بما هو أحسنه ، وكذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : العلم كثير فخذوا من كل شىء أحسنه .

يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى أن من قواعد الاسلام أن لايقول العالم عن شىء أنه حق إلا إذا قام البرهان اليقينى القاطع عليه والحذر كل الحذر من أن يحمل يقيناً ماليس بيقين . أو أن ينزل الظن منزلة اليقين . والتفريق بين ماهو حق وماهو ظن ، وتعاليم القرآن تأخذ بالحذر من الظنون والأوهام .



والاسلام عدو التقليد، يمنع المتابعة من غير وقوف على دليل أو اقتناع به . والاسلام يدعو إلى الأخذ بالأحسن .

٦ وقرر القرآن أن للكون نواميس ثابتة (فهل ينظرون الأسنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تأويلا) ومنها اطراد الطبيعة وبقاء سنن الله فيها من غير تحويل ولا تبديل حتى ينتهى الأجل المقرر لها .

والمشاهدة أصل طبيعى وهو أصل قرآنى وتأمر الآيات القرآنيـــة بالمشاهدة واستعمال السمع والبصر مع العقل ، كما دعا الاسلام إلى استعمال البصر مع العقل (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) واستعمال السمع مع العقل (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) .

وقد وجه الاسلام النظر إلى علم البيولوجيا (علم الحياة): تكوين الانسان (فلينظر الانسان مم خلق) وإلى علم النفس : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وإلى علم التاريخ والاجتماع (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم) الآية .

وقرر الإسلام أن اختلاف الناس فى معتقداتهم هو من سنن الله فى خلقه (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) .

وهكذا نجد أن الأصول العامة لمنطلق العلم قد جاء بها الاسلام ورسم القرآن طريقها ، ونجد أن الاسلام قرر دستور العلم فدعا إلى عدم الانخداع بالأوهام أو قبول الظن أو ممن يقولون بغير دليل ودعا إلى أعمال العقل وسؤال أهل الذكر فلا يقلدون أحداً وأن يكونوا أحرار فى النظر لا يصدهم من ذلك شيء .



وردت كلمة العلم ومشتقاتها فى القرآن الكريم فى (٨٧٠ آية) وأول كلمة نزلت من القرآن هى [اقرأ] وقد أقسم الله بالقلم ومايسطرون .

وقد أطلقت كلمة العلم فى الاسلام دون أن تعنى نوعاً معيناً من العلم بل العلم على إطلاقه .

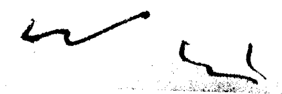
والعلم الاسلامى حسى واقعى تجريبى خال من عنصر الخيال والقصة والتفسير الأسطورى والشعرى لأنه مقيد بالملاحظة والتجربة .

والقرآن هو الذى دعا المسلمين وحثهم على البحث العلمى حين طالبهم بالبرهان فالتمسوه عند كل من وجد عنده علم فلما تسلموه لم يخضعهم وإنما أخضعوه لاطار التوحيد وأسلوب التجربة وحرروه من زيوف الوثنية وفككوه وحللوه وأعادوا صياغته فأصبح من أولياته فى ضوء مفهوم الاسلام خلقاً جديداً مختلفاً كل الاختلاف ثم أقاموا عليه ذلك البناء الشامخ الذى حقق لهم الوصول إلى ماوصلوا إليه .

يقول الدكتور محمد عبد الهادى أبوريدة :

تميز العلم الاسلامى بأنه حسى واقعى تجريبى ، خال من عنصر الخيال والقصة والتفسير اللاشعورى أو الشعرى لأنه مقيد بالملاحظة والتجربة كما أنه تميز بأنه ناقد ، إن الفكر الاسلامى كان ثمرة عملية نقد كبيرة وعملية تصفية الفكر السابق وتجديد وبناء استغرق قروناً زاهــرة فى حياة العقل فى الاسلام .

واعتمد العلماء المسلمون على العقل الحسى ، مطالبين أنفسهم وغيرهم بالدليل والبرهان ، استطاعوا بعد الاطلاع على معارف الأمم أن يصححوها ويسيروا بالمعرفة خطوات هائلة وكان تجديدهم للعلوم الطبيعية والكونية من طرق شتى .



— البدء بدراسة المحسوس لا المجردات الذهنية .

— وسيلة البحث الحياة والعقل .

— إدراك فكرة الكم والمقدار فى نظام الطبيعة .

— الاهتمام بمعرفة الحقيقة ووجوه الحكم والابداع فى صنع العالم وتحديد فهم المعرفة العلمية بالاعتماد على الملاحظة والتجربة بعد أن غلب على اليونان الاستنباط النظرى ، فصححوا معارف القدماء وابتكروا علوماً خاصة بهم .

جابر مؤسس علم الكيمياء بمعناه الحديث ، ووضع الحسن بن الهيثم علم الضوء بالمعنى الحديث ، والتبانى مجدد علم الفلك .

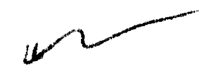
وقد أقام جابر علم الكيمياء على التجربة التى جعلها وسيلة كشف وتمحيص يسبقها مالابد منه قبلها من تصور وتخطيط فكرى يقود التجربة(١) .

والمعروف أن مفكرى الاسلام لم يقبلوا المنطق الأرسطى اليونانى : منطق القياس ووضعوا المنطق الاستقرائى كاملا .

وأهم خصائص المنهج التجريبى كما يورد ذلك الدكتور على سامى النشار فى كتابه (منهج البحث التجريبى فى العالم الاسلامى) . أنه منهج إدراكى فقد أدرك مفكروا الاسلام تمام الادراك أنه لابد من وضع منهج فى البحث يخالف المنهج اليونانى حيث أن هذا المنهج إنما هو يعبر عن حضارة مخالفة وتصور حضارى مخالف . وقد وصل المسلمون إلى فكرة الخواص اللازمة .

---

(١) محمد عبد الهادى أبوريدة .



وهى الفكرة التى صبغت المنطق الاستقرائى الحديث بصبغتها العامة وقد أخذ بها جون استيورت مل وغيره .

وقد توصل المسلمون إلى أن القضية الجزئية يتوصل إليها قبل القضية الكلية وقياس المسلمين يختلف عن قياس أرسطو ، وقياس أرسطو حركة فكرية ينتقل بها العقل من حكم كلى إلى أحكام جزئية أما القياس الإسلامى فهو ينتقل من حالة جزئية إلى حالة جزئية أخرى لوجود جامع بينهما بواسطة تحقيق علمى دقيق .

وقد اعتبر المسلمون القياس (أو قياس الغائب على الشاهد) موصلا إلى (اليقين) بينما أرسطو توصل فقط إلى (الظن) .

كذلك فقد أقام المسلمون قياسهم على قانون العلية وقانون الاطراد فى وقوع الحوادث . وفهم المسلمون العلة — لا على طريقة أرسطو — علاقة ضرورية عقلية بل على أنها تعاقب حادثين إحداهما بعد الأخرى فاصطلح على تسمية إحداهما علة والأخرى معلولا بدون وجود أى رابطة ضرورية بين الحادثين .

وإذا كان التجريب هو نقطة الارتكاز فى المفهوم الإسلامى للعلم فإن مصدر ذلك فى الحقيقة هو دعوة القرآن إلى النظر فى السموات والأرض ودعوة الإسلام إلى السيطرة على الحياة ، ومن هنا اندفع الصحابة الأولون إلى إبداع فكرة القياس : وفكرة القياس كما يقول الدكتور النشار : هى أخطر فكرة فى تاريخ الإنسانية جميعاً ، ليس هو القياس الأرسطى بل هو المنهج التجريبى فى أعظم صوره وفكرة القياس لم توضع إلا فى عصر النبى وفى عصر صحابته وتحت تأثير القرآن نفسه : كقياس الأشباه بالنظائر ، والأمثال بالأمثال فحسب ، بل ووضع أيضاً فى العصر القرآنى قواعد للقياس وشرائط العلوم ،

قال الزركشى صاحب البحر المحيط : أن الصحابة تكلموا فى زمن النبى فى العلل .

ويقول ابن خلدون : أن كثيراً من الواقعات لم تندرج فى النصوص الثابتة فقاسها الصحابة بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشروط من ذلك الإلحاق ، تصحح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين حتى يغلب على الظن أن حكم الله فيهما واحد وصار ذلك دليلا شرعياً بإجماعهم عليه وهو « القياس » .

الفصل الثالث

« قل انظروا »

هى نقطة البدء فى العلم التجريبى

لا ريب أن القرآن الكريم هو الذى أعطى المسلمين مدخلهم إلى بناء قاعدة العلم وفى ضوئها نظروا إلى تراكمات المعارف التى خلفها الفرس واليونان والهنود وغيرهم والتى كانت قد ورثتها يونان بعد أن تجمعت خلال ثلاثة آلاف من السنين وتركزت فى بيئتهم وخاصة بعد أن آلت إليهم السيطرة السياسية التى فرضها اليونان ثم الرومان على أغلب العالم القديم أكثر من ستة قرون .

فقد جاء الإسلام أولا بالفكرة الميتافيزيقية كاملة [عالم الغيب] ليفرغ العقل إلى البحث فى مهمته الخاصة من النظر فى الكون واستكناه أسرار الطبيعة والأرض والبحث عن الرزق والكشف عن مذخورها واعتبر ذلك هو مهمته الأساسية .

وكانت قاعدة الإسلام الأولى : البحث عن الخصائص وامتناع البحث عن الجوهر ، وهذا أول اختلاف جذرى بين المسلمين وبين منهج البحث قبل الإسلام : لم يشتغل المسلمون بالجوهر أو الماهية أو التصورات التى شغلت بها الفلسفة اليونانية وإنما اشتغلوا بالخواص ، ذلك أن القرآن قد حدد مسائل ما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا) تحديداً كاملا وشاملا ليغنى الإنسان عن البحث فيه وفيما وراءه ولكى يكون منطلق بحثه متجها إلى الكون وآفاقه مقرراً أن البحث فى الجوهر لا يمكنه من الوصول إلى حقيقته .



وذلك ما عبر عنه الرسول الكريم بقوله :

« تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله » .

هذا هو منطلق التحول من المنطق القياسى اليونانى إلى المنهج التجريبى الإسلامى .

« البحث عن الخصائص وعدم البحث عن الماهية » .

وقد جاء القرآن الكريم بالأسس التى تستنبط منها القواعد الكلية للنظام جميعاً وكانت نزعة القرآن « عملية » تنأى عن البحث فى الشىء ذاته .

ولما كان المنهج القياسى اليونانى هو روح الحضارة اليونانية فإن المنهج الاستقرائى التجريبى هو روح الحضارة الإسلامية : حضارة عملية تجريبية تتجه إلى دفع العقل الإنسانى إلى مجاله الطبيعى بالبحث فى عمران الأرض والكشف عن مذخورها .

والقاعدة الأساسية للمنهج الإسلامى بدأت من الآية القرآنية الكريمة :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » .

وهى تعنى : النظر والتفكر والتجريب :

وكانت بداية النظر العقلى فى الإسلام هى الاجتهاد بالرأى الذى نما وترعرع فى رعاية القرآن ، وعنه نشأ علم أصول الفقه ، الذى تشكل قبل أن يتأثر المسلمون بالعلوم والفلسفات اليونانية فى بحثها عما وراء الطبيعة أو الإلهيات .

ومن منطلق البحث فى الخصائص وعدم البحث عن الماهية جاءت القاعدة الأخرى .

« نهى القرآن عن الجدل ودعوته إلى الحكمة » .

ولقد اتجه المنهج الإسلامى إلى الفطرة ، التى خاطبها القرآن فى الناس ، ولذلك فلم يؤلف القرآن براهينه من مقدمات وقضايا ونتائج .

ومن ثم فقد رفض المسلمون منهج اليونان عندما ترجم ، وأبعدوه، واستطاعوا استمداداً من مفهومهم الأصيل وجرياً فى طريقهم الواضح أن يضعوا أسس المنهج التجريبى (الاستقرائى) الذى يقوم على التجربة وتنظيم قوانين الاستقراء ، هذا المنهج المعبر عن روح الإسلام والقائم على أساس التناسق بين النظر والعمل ، والجامع بين [نظره فى الوجود وطريقه فى الحياة] .

ولقد كانت الحضارة اليونانية عاجزة عن دخول ميدان التجربة فوقفت عند القياس وبذلك حجزت نفسها عن الآفاق الواسعة التى لم يدخلها قبل الإسلام أحد ومعنى هذا أن تراث العلم كله الذى كان قد استقر عند البيزنطيين قد توقف فى آخر مراحله عند القياس . وأن الذى اقتحم العقبة إلى التجريب هم علماء المسلمين وحدهم وبذلك أدخلوا العلم والعالم كله تلك المرحلة الجديدة التى أنشأت الحضارة التجريبية والتكنولوجية المعاصرة وبذلك فإن القرآن الكريم هو منطلق التجريب ومن ثم فهو منطلق هذه الحضارة أساساً .

(٢)



كيف أخذ المسلمون تراث المعرفة القديم وكيف مضوا به :

كان تراث المعرفة القديم الذى يوصف بالعلم تجاوزاً مجموعة من الخرافات والاعتقاد بالتنجيم والسحر وكانت معرفة اليونان بالنجوم خرافات . أما العرب فقد جعلوا من النجوم علماً صحيحاً وأنكروا خرافاته وحاولوا إصلاح مجالاته .

كذلك أخذ المسلمون (الجبر) عن اليونان فى درجته الأولى فارتقوا به إلى الدرجة الثامنة ، وأخذوا الكيمياء من اليونان محاولات لتحويل العناصر الخسيسة إلى عناصر شريفة ، وهم الذين وضعوا أسس المختبرات العلمية للكيمياء .

والمسلمون هم الذين استعملوا الأرقام الحسابية بما فيها الصفر فتمكنوا من بناء المعادلات البسيطة والمركبة .

وقد أشار الكثيرون إلى إيجابية المسلمين ومنهم (فيلهم وليم ديلتاى): الذى يقول إن الغرب مدين للعرب فى توسيع نطاق الجبر اليونانى وهم بلاشك قد هيئوا الأمر بتقدمهم الخاص إلى نشأة العلم الطبيعى الحديث فتوسعوا فى الكيمياء عما وصلت إليهم من مدرسة الإسكندرية وأوجدوا عدة مستحضرات كيماوية كما تقدموا فى الرياضة واستخدموها كآلة للتقدير الكمى فى المساحة، إذ اعترف بأن العقلية العربية يحق لها أن تنتج كعقلية أى شعب آخر وأنها قد انتجت بالفعل فى بعض الموضوعات وأنه كان لهذا الإنتاج أثر فى تطور العقلية الغربية .

(٣)

عارض المسلمون مفاهيم اليونان والفكر البشرى وكشفوا عن زيفه :

أولا : مفهوم العبودية البشرية والاستعلاء الجنسى والطبقى والارستقراطية اليونانية والرومانية والفارسية والفرعونية والهندية ودعا الإسلام إلى الإخاء البشرى .

ثانياً : مفهوم القياس وإعلاء العقل والمنطق الصورى ودعا الإسلام إلى التجريب .

ثالثاً : تعدد الآلهة ودعا الإسلام إلى الوحدانية .

رابعاً : الإباحية الأخلاقية ودعا الإسلام إلى الالتزام الأخلاقى .

خامساً : مفهوم الوثنية والتعدد ومفهوم أرسطو فى الله تبارك وتعالى :

(المحرك الذى لا يتحرك : مفارق للعالم ، لا يعلم عنه شيئاً) .

وأنكر الإسلام وحدة الوجود والحلول والاتحاد وأعلن الفصل بين الله تبارك وتعالى وبين الكون .

سادساً : أنكر الإسلام أزلية المادة وقال المسلمون بأنها ليست أزلية ولكنها مخلوقة .

سابعاً : من أخطاء الفكر البشرى إنكار البعث وقد قرر الإسلام بعث الأجساد .

كذلك حرر الإسلام مفهوم التوحيد وجعله منطلقا إلى العلم بعد أن حرر العقل البشرى من الوثنية وحرر الإنسان نفسه من العبودية .

حيث أعلن[1] القرآن وحده الله وكرامة الإنسان . ودعا إلى التحرر من الوثنية والكهنوتية وأبطل سلطان الأحبار والرهبان والوسطاء بين العبد والرب ولم يفرض على المسلم الذى يسعى إلى المحراب شفاعة من ولى فلا ترجمان بين الله وعباده يملك التحليل والتحريم والغفران ويقضى بالحرمان أو النجاة . والخطاب إذ يتجه فى القرآن إلى عقل الإنسان يتجه حراً طليقاً من سلطان الهياكل والمحاريب وسلطان كهانها وسدنتها ، كل هذا من شأنه أن ينمى فى الفرد الإحساس بالمسئولية ويفتح بضميره منفذاً واسعا إلى الألوهية ويربطه بها رباطا مباشراً محكما يرفع كل حجر على وجدانه .

والله تبارك وتعالى فى الإسلام : فاعل خالق محيط بكل شىء ، يعرف أدق الجزئيات كما يعرف كبرى المسائل ، له الخلق والأمر ، والله تبارك وتعالى هو صانع المادة والعالم خالق العالم بمشيئته من العدم ، وعلم الله محيط بالكائنات أى بالأشياء العامة كلها (النواميس الكلية والقوانين العامة والأشياء الصغيرة) .

ويقرر الإسلام توحيد الله وتنزيهه عن ملامسة المادة بعيداً عن مفهوم وحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد أو الإشراق أو التناسخ ، كذلك فان

---

(١) دكتور عبد الرحمن . مرجعاً من الفلسفة اليونانية .

الإسلام يقرر أن العقل لا يمكن أن يستقل بمعرفة الله ولا أن يهتدى إليه إلا إذا كان له فى تطوافه إلى تلك الغاية قلب ، يصدق بالوحى والنبوة والرسالة وهكذا أخضع الإسلام العقل للوحى .

وجعل الإسلام مفهوم المعرفة تجريبياً وليس قياسياً ، وقد غمر هذا المفهوم العالم الإسلامى بعد انتشار الإسلام ، وظل العالم كله يفكر « بعقلية القرآن ، ويكتب بقلمه ويؤلف بلغته » .

وقد وضع المسلمون المنطق الاستقرائى كاملا ، وقد نبه العالم التجريبى : (روجر بيكون) إلى هذا حين قال : إن أهم خصائص المنهج التجريبى الإسلامى إنه منهج إدراكى أو تأملى فقد أدرك مفكروا الإسلام تمام الإدراك أنه لابد من وضع منهج فى البحث يختلف عن المنهج اليونانى حيث إن هذا المنهج الأخير إنما هو تعبير عن حضارة مخالفة وتصور حضارى مخالف .

كذلك فقد أعلن مفهوم الإسلام حقيقة الاتجاه العلمى فأعلن أن الطبيعة كلها مسخرة لله تبارك وتعالى لا شىء فيها يفعل بذاته عن ذاته وإن الله تبارك وتعالى هو الذى وضع قوانين الأشياء ونواميس الكون والأسباب والمسببات وهو القادر وحده على إيقاف هذه القوانين أو خرق هذه النواميس .

وإن ما يكتشفه العالم ليس جديداً ولكنه موجود منذ الأزل ، وإن الإنسان هو الذى أوتى من العلم القليل هو الذى هدى إليه .

(٤)

هذا المنهج الذى قدمه المسلمون هو الذى نقله الغرب فى العصر الحديث .

ذلك إن أوربا كانت لا تزال غارقة فى ظلمات القرون الوسطى عندما

كان المسلمون يصنعون هذا المنهج ويطبقونه ، وحين كشفوا عن زيف مفهوم أرسطو فى تقديس العقل واحتقار التجربة ، فضلا عن مفاهيمه الأخرى فى إقرار عبودية الملوك والأمراء للناس . وقد هدم المفكرون المسلمون منطق أرسطو وكشفوا زيفه وأقاموا مفهومها جديداً يتفق مع روح الحضارة الإسلامية ، على أساس التجربة والاستقراء ، وقرر ابن تيميه أن القرآن يمدنا بصور الاستدلال وإنه هو الذى يقدم لنا الميزان ويقدم لنا الأقيسة البرهانية .

وكان ابن تيميه رائداً لكل الاتجاهات التى جاءت بعده فى نقد منطق أرسطو من أرجانون فرنسيس بيكون إلى المنطقية الوضعية ، وقد هدم المفكرون الأوربيون - الذين تعلموا على منهج التجريب الإسلامى فى القرن الثالث عشر الميلادى عندما نقل هذا المنهج إلى اوربا - مفهوم أرسطو ودعا روجر بيكون إلى التخلص من مذهب أرسطو لعدم كفايته ، وحذر فرنسيس بيكون بعده من استخدام الطريقة القياسية ، وقد ثبت تماماً أن اليونان أخذوا بالقياس بينما أخذ المسلمون بالتجربة ، وإن المنهج التجريبى هو روح الحضارة الإسلامية ، وإنه مباين لروح الحضارة اليونانية .

ومن هنا فإن المنهج الأرسطاليسى هو منهج الحضارة والفكر اليونانى لم يقبل فى محيط الإسلام ، وإن المنهج التجريبى الذى عرفته أوربا بعد قرون من مطلع حضارتها الحديثة هو منهج الإسلام . والمعروف أن الأوربى لم يتمكن من الابتكار إلا بعد أن تحرر تماماً من قيود تعاليم المسيحية الصارمة .

والمعروف أن المسيحية منذ دخلت أوربا خافت من الفلسفة اليونانية وخشيت من خطرها حتى دفنتها فى دهاليز فى باطن الأرض إلى أن ابتعثها المسلمون ، الذين اقتحموها وصححوها ورفضوا منها ما يخالف التوحيد وأخذوا منها « العلوم » فقد كانت الفلسفة جامعة بين الرياضيات والطبيعيات

(وهى العلوم) وبين الإلهيات (وهى الفلسفة) أما الإلهيات فقد رفضوها كلية وأما الرياضيات والطبيعيات فقد نظروا فيها كمواد خام وصححوا ما كان منها محتاجاً إلى التصحيح ورفضوا الزائف من الخرافة والسحر والكهانة وصهروا ذلك كله فى إطار منهجهم المستمد من القرآن القائم على التوحيد .

كذلك رفضوا رأى أفلاطون الذى جرد الفرد من قيمته ليجعل منه أداة مسخرة لخدمة الدولة ينصهر كيانه فى جهازها أو رأى أرسطو الذى أعطى الفرد حرية مطلقة لا حدود لها . ورفض الإسلام عالم الرؤى والأحلام الذى أقامه أفلاطون وعالم الواقع والحس المتعسف الذى أقامه أرسطو ، ورفض مفهوم المشاعية الأفلاطونية فى المرأة ، وغيرها لأنها جميعاً لا تطابق الفطرة وتجافى طبيعة الإنسان .

وهكذا حرر الإسلام عقل الإنسان وتفكيره واعترف بطبيعته ومطامحه وأهوائه وأشواقه جميعاً وحطم الأغلال المتراكمة الموروثة عن الأجيال الماضية التى عزلت العقل عن تفكيره والقلب عن إحساسه .

وهـــكذا نرى خطأ تلك المحاولات المضللة التى يحاول الاستشراق والتغريب إثارتها والدعوة إليها لاستنقاص هذا الدور أو إثارة الشكوك حوله أو القول بأن المسلمين لم يزد عملهم عن حفظ تراث اليونان أو المحاولة الباطلة فى إرجاع العلوم الحديثة إلى الركام اليونانى القديم .

كـذلك فإنه لم يثبت قط أن المسلمين قبلوا المفهوم اليونانى للعلم أو للفلسفة أو خضعوا له ، ذلك لأن طبيعة الأمور كانت تقتضى ذلك ، فلم يكن ممكناً لحضارة تدعو إلى التوحيد والعدل والرحمة والإخاء الإنسانى أن تقبل بمنهج يقوم على الوثنية والعبودية والظلم والإباحية لتتخذه أساساً لحضارتها .

الفصل الرابع

ماذا قدم المسلمون

يقول العلامة بريفولت فى كتابه بناء الإنسانية Making of Humanity
لقد كانت أوربا بطيئة نوعا ما فى إدراك الأصل الإسلامى لمنهجها العلمى ،
ليس ثمة ناحية من نواحى الازدهار الأوربى إلا ويمكن إرجاع أصلها
إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة فإن هذه المؤثرات توجد أوضح
ما تكون وأهم ما يكون فى تلك الطاقة التى تكون ما للعلم الحديث من قوة
متميزة ثابتة . إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من
كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية
بأكثر من هذا : إنه يدين لها بوجوده نفسه » .

هذه الشهادة وعشرات مثلها سنوردها فى مواضعها تكشف حقيقة
« العمل » الذى قدمه الإسلام فى بناء العلم وبناء الإنسانية والدور الذى قام
به وهو دور أنكرته أوربا وراوغت فى سبيل الاعتراف به عصوراً طويلة
بعد أن أخذت كل معطيات علماء المسلمين ونسبتها إلى نفسها على أنها من
مجهودها الخاص ونتاج علمائها حتى جاء الوقت الذى انكشفت فيه الحقيقة
التى تقول إنه لم يكن ثمة علم بالمعنى المعروف قبل نزول القرآن ، وإنما كانت
مجموعة من الاجتهادات فى ميادين مختلفة مختلطة بالسحر والخرافات . وقد
جاء الإسلام لجمع هذا التراث كله وصفاه من خرافاته وصحح أخطائه ،
وحرر مفاهيمه ، وانطلق به فى إطار مفهوم العلم الذى قدمه القرآن لينشىء
ذلك البناء الضخم الذى عرفه العالم كله من بعد .

وقد استمر هذا العمل إلى سقوط الأندلس عام ١٤٩٢ ، فلما انقطعت هذه



المنطقة بمعاملها وأبحاثها وعزلت عن عمل العلماء المسلمين استمرت الجهود في مصر ودمشق وبغداد والمغرب خـــلال العصر العثماني وإن كانت قد ضعفت عن العطاء بعد أن انقطعت عن مصادرها التي استولى عليها الفرنجة وإن كانت أعظم الأعمال التي قام بها الفرنجة بعد كاكتشاف أمريكا والهند وغيرها قد تمت بجهود علماء المسلمين .

أما آثار العلماء المسلمين فقـــد ظلت أساسية وقائمة ومستمرة في الجامعات الأوربية إلى القرن التاسع عشر ، لقد اقتحم المسلمون كافة الميادين العلمية فعملوا فيها وقدموا فيها أصولا وإضافات : الحساب ، الأرقام ، الكيمياء ، الجبر ، الفلك الرياضيات ، الطبيعيات ، الموسيقى ، الهندسة ، وفي إيجاز شديد نقدم خريطة للأعلام وخريطة للأعمال .

(١) خريطة الأعلام

ابن النفيس : الدورة الدموية الصغرى .

سنان بن ثابت بن قره : إجتاز الامتحان على يده في بغداد ثمانمائة وستين طبيباً .

جابر بن حيان : استحضر حامض الكبريتيك بعد تقطيره من الشبة واستحضر حامض النتريك وأول من اكتشف الصودا الكاوية واستحضر ماء الذهب .

الرازي : اكتشف زيت الزاج ، واختراع الفتيلة في الجراحة وحلل القرحة الدرنية والقولنج الكبدي والكلوي والتهاب الرئة والجنب والتهاب الدماغ .

ابن الهيثم : مكتشف علم البصريات ، حلل انكساره في الجو . أول



من قرر أن الرؤية تتم ليس بواسطة شعاع تطلقه العين فى اتجاه المنظور بل بواسطة أشعة تطلقها الأجسام المضيئة إلى العين التى تراها بواسطة جسمها الشفاف .

الفارابى : وضع علم الموسيقى والتعاليم الصوتية .

الفرغانى : وضع علم المثلثات وأول من سبق إلى اكتشاف أن الشمس والسيارات ترسم مدارات فى الاتجاه المعاكس للحركة النهارية .

الكندى : ألف فى البصريات وأصول الموسيقى والكيمياء .

ثابت بن قره : حسب ارتفاع الشمس الظاهر وطول السنة الشمسية .

ابن يونس : أول من عرف الرقاص .

أبو الثناء الأصفهانى : تحدث عن فكرة كشف الأرض الجديدة قبل رحلة كولومبس بنحو قرن ونصف .

التبانى : اكتشف : نظرية النسب المثلثة .

عمر الخيام : الجبر المتقدم والتقويم الغريغورى .

المسعودى : ألف أول موسوعة جغرافية .

الادريسى : كروية الأرض وصاحب نظرية ذروة العالم . وصنع كرة من فضة للملك روجر الثانى ملك صقلية فى وزن ٤٠٠ رطل رومى ورسم عليها صورة الأرض ووصف أشكالها .

إبن سينا : مؤلف القانون فى الطب .

إبن خاتمه : دراسة الطاعون .



جابر بن حيان : أبو الكيمياء .

ابن العوام : علم النبات .

ابن البيطار : علم الصيدلة وسجل ١٤٠٠ عقاراً لم تعرف اليونان منها غير أربعمائة والآلاف اكتشفها المسلمون وحددوا منافعها ومضارها .

غياث الدين الكاشى : واضع أسس الكسور العشرية .

ابن الحفيد : تحليل العدوى قبل اكتشاف الجراثيم .

الزهراوى : عـــرف مائة آلة ومبضع وشخص أمراض النزيف الدموى .

على بن عيسى : أكبر مؤلف فى طب العيون : درس مائة وثلاثة من أمراض العيون وقدم لها مائة وثلاثة وأربعين دواء .

القزوينى : أول من عرف النفط وحلل أنواعه وآثاره .

أبو الفداء : أعلن أن الأرض كرة تطفو فى مركز الوجود ، وقال : إن رجلين لو ابتدءا السير واتجه أحدهما شرقاً والآخر غرباً ، فإنهما يتقابلان ، ولكن الرجل الذى اتجه شرقاً يصل مكان اللقاء قبل الآخر بيوم واحد .

البيرونى : صاغ نظرية دوران الأرض حول محورها وحول الشمس: وعين خطوط الطول وخطوط العرض وأدرك البيرونى أن على قمم العالم هى التبت فى آسيا والبيرنية والألب فى أوروبا .

محمد بن موسى الخوارزمى : وضع أصول علم الجبر وعنه أخذته أوربا وله جداول الفلكية .

أبو الحسن العباسى (ابن يونس) : أول من اخترع رقاص الساعة والساعة الدقاقة التى أهداها الرشيد إلى شارلمان .

هؤلاء كانوا يوجهون العلم لله خالصاً ولخدمة الأمة ولا يتطلعون إلى مال أو جائزة سنية ، كان ابن الهيثم صاحب نظرية الضوء التى قام عليها علم أوربا كله ، يعتمد فى كسب قوته على نسخ الكتب ، وكان يقول : ويكفينى قوت يوم ، وعندما وصلته هدية أحد الأمراء قال : أعلم أنه لا أجر ولا رشوة ، ولا هدية فى إقامة الخير ونشر العلم ، أما البيرونى فقد رد ثلاثة جمال تنوء بأحمالها من النقود وقال : إنما نخدم العلم للعلم .

(٢) خريطة الأعمال

عرف المسلمون قياس خط نصف النهار وقدروا مقدار الدرجة الأرضية ، وهم أول من استعمل الإبرة المغناطيسية الملاحة فى البحار ، ووضعوا الأطوال والعروض بالدرجة والدقائق والثوانى ، وأول من ضبط طول السنة وحققوا مدار الشمس وانحرافها وحركة الاعتدالين وصوروا السماء ورسموا لبروجها وأفلاكها الرسوم الدقيقة ، ووضعوا الآلات لدرس الفلك فيها ، وعرفوا آلات السمت (ارتفاع النجم) ، والمزاول (الساعات الشمسية) والاسطرلابات (آلة لقياس الزوايا) وصنع أطباؤهم خيط الجراح من أمعاء القط ، حتى إذا خيط به الجرح التأم ، وخضم الجسم الخيط دون حاجة إلى نزعه ، وعرفوا البوصلة فى الملاحة .



وعرف المسلمون الكاغد وأحلوه محل الرق ، وقد أدخلت صناعة الورق من شرانق الحرير إلى سمرقند .

وعرف المسلمون استغلال مناجم الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب ، وأتقنوا فن تسقية الفولاذ ، واخترعوا البارود وعرفوا تركيب النار اليونانية فأصبحت أداة من أدوات هجومهم وهم أول من استخرج قوة البارود الدافعة ، كما أنهم أول من استعمل الآلات القاصفة .

ومن آثارهم صناعة استخراج القطران الذى يطلى به قاع السفن ويحميها من العطب . ولهم فضلهم فى تحسين نسل الخيول .

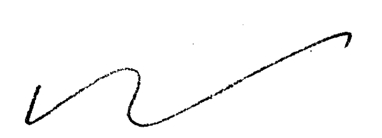
والمسلمون هم الذين وضعوا أسس الكيمياء ومارسوا أعمال التقطير ، والترشيح والتصعيد ، والبلورة والتذويب والألغام والتكليس ، وهم الذين استحضروا الكحول والقلى والبورق والزرنيخ والبوتاس والأثمد (الكحل) وزيت الزاج وحامض الكبريتيك) والزاج الأخضر ، وماء الفضة (حامض النتريك) وحجر جهنم (نترات الفضة) وملح البارود (نترات البوتاس) والسليمانى ، والراسب الأحمر (أكسيد الزئبق) وروح النشادر ، وملح النشادر ، وملح الطرطير ، وماء الذهب والبارود .

وفتت أطباء المسلمين الحصى فى المثانة ، وسدوا الشرايين النازفة ، واستعملوا المرق (المخدر) فى العمليات الجراحية وكشفوا النقاب عن الدورة الدموية ودودة الانكلستوما ، وصححوا آراء إبقراط وجالينوس فى التشريح ووظائف الأعضاء . وما تزال القلويات كلها — فى الكيمياء — معروفة بأسمائها العربية .

وعرف المسلمون (الصفر) ولم يعرفه الغرب إلا فى القرن الثانى عشر ، استعمله المسلمون فى القرن الثامن الميلادى فى الحساب ورسموه على هيئة حلقة وشرح الخوارزمى طريقة استعماله .



وعلل المسلمون صعود الماء في العيون والفوارات وتجمع الماء في القنوات وسموه (السمارة) وعرفوا كثافة الذهب والرصاص ، وبحثوا في الصوت وحصوله ، وعللوا حدوث الصدى ، وبحثوا في الأوتار واهتزازها ، وعرفوا ما بين طول الوتر وغلظه وتوتره من علاقة كما عرفوا خاصة الجذب في المغناطيس وعللوا ملوحة البحر وعذوبة المطر، واستحالة الحطب في الاحتراق واستحالة الزيت في المصباح وصعود الهواء وانحدار الماء .



الفصل الخامس

أصول المنهج العلمي : طلب الحق

قدم علماء المسلمين لأول مرة في تاريخ البشرية أصول المنهج العلمي في البحث : القائم على الاستقراء والقياس والاعتماد على المشاهدة والتجربة أو التمثيل . وأحاطوا هذا المنهج بالإنصاف لمن سبقهم وبالأمانة العلمية وتقوى الله في قول كلمة الحق . نجد هذا واضحاً في الأصـــول التي أقام البحث العلمي عليها .

أولا : استقراء العدل لا اتباع الهوى (ابن الهيثم) :

يقول : يبتدىء في البحث باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات وبتميز خواص الجزيئات ، ويلتقط باستقراء مايخص البصر في حال الإبصار وماهو مطرد لايتغير ، وظاهر لايشتبه في كيفية الإحساس ، ثم نترق في البحث والمقاييس على التدريج والتدريب مع انتقاء المقدمات والتحفظ في الغلط في النتائج ونجعل غرضنا في جميع ما نستقر به ونتصفحه استعمال العدل لااتباع الهوى ، ونتحرى في سائر ما نخبر به وننتقد ، طلباً للحق الذي به تبلج الصدور ونصل بالتدرج واللطف إلى للغاية التي عندها يقع اليقين ويظهر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم به مواد الشبهات .

٢ - تنزيه النفس عن العوارض المردئة [البيروني] :

أن أقرب الأسباب (لمعرفة التواريخ التي تستعملها الأمم) هو معرفة

أخبار الأمم السابقة وأنباء القرون الماضية لأن أكثرها أحوال عنها ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم ، ولاسبيل إلى التوسل إلى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنحل المستعملين لذلك ، ونعتبر ماهم فيه أساً ، نبنى عليه بعده ، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم فى إثبات ذلك بعضها لبعض بعد تنزيه النفس عن العوارض المردئة لأكثر الخلق والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهى كالعادة المألوفة والتعصب والتظافر واتباع الهوى والتغالب بالرئاسة .. وأشباه ذلك .

« كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية »

٣ — إجراء التجربة (جابر بن حيان) :

أن واجب المشتغل فى الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة وأن المعرفة لاتحصل إلا بها .

٤ — ما كان موافقاً للحق قبلناه وما كان غير موافق نبهنا عليه (ابن رشد) :

« إذا ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السابقة نظراً فى الموجودات واعتباراً لها ، بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر فى هذا الذى قالوه عن ذلك وما أثبتوه فى كتبهم فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم . وعلينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك وسواء كان هذا التعبير مشاركا لنا فى الملة أو غير مشارك إذا كانت فيها شروط الصحة .



٥ - طالب الحق مستعد لترك قوله إذا رأى عند غيره الحق السائغ (ابن حزم) .

« لا يجوز لمن يملكون أدوات الاجتهاد والعقل أن يفكروا إما فى كل مايقول أو كل ماقال وقرر من غير ترجيح دليل على دليل وطالب الحق لايصح أن يعميه التعصب لقوله عن التماسه حيث يكون وهو فى إخلاصه للحق لايبغى له الغلب ولكن يبغى نصر الحق المجرد . وهو مستعد لترك قوله هو إلى قول غيره ، إن رأى عند غيره الحق السائغ . الذى لايشوبه الباطل ، وكذلك يقول فيما لم يصح عندنا حتى الآن فنقول : محمد بن مقرين : إن وجدنا أهدى منه اتبعناه وتركنا مانحن عليه فلانأخذ رأياً إلا بعد أن نمحصه ونسلط عليه العقل والبرهان والمعرفة تكون :

(أولا) : بشهادة الحواس .

(ثانياً): بأول العقل (أى بالضرورة) وبالعقل من غير استعمال الحواس،

(ثالثاً) : وببرهان راجع من قرب أو بعد إلى شهادة الحواس .

٦ — انظروا عمن تأخذون العلم : (الشافعى) :

« إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه ولقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله عند هذه الأساطين فما أخذت منهم شيئاً وأن أحدهم لو اؤتمن على بيت المال لكان أميناً ، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن .

٧ — الحق والعدل والصدق : أساس العلم :

يقول الامام الترمذى : إنا وجدنا دين الله عز وجل مبيناً على ثلاثة أركان :

على الحق والعدل والصدق . فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول .

فإذا افتقد الحق من عمل خلفه الباطل ، وإذا افتقد منه العدل خلفه الجور وإذا افتقد منه الصدق خلفه الكذب .

فهذه الثلاثة جند المعرفة وهذه الثلاثة التى هى أضدادهن جند الهوى .

(٢)

من يراجع المنهج الذى وضعه علماء الاسلام فى مجال البحث العلمى يجد أن حركتهم كلها كانت فى نطاق الخطوط العامة التى رسمها لهم القرآن سواء فى استكناه البحث عن مافى السموات والأرض أم عن الأسلوب الذى يدعو إلى المطالبة بالبرهان والبحث عن الحكمة والتماسها :

« الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها » أو عن انتصاف السابقين على طريق العلم والبحث حتى ولو كانوا من أهل الأديان الأخرى والاعتراف بفضلهم ، ولاريب أن هذا الطريق الذى اختطوه كان طريقاً جديداً له أصالته وذاتيته الخاصة التى تختلف عن السبل والمناهج التى شقها المشتغلون بالعلم قبلهم — وأكاد أقول من بعدهم من الغربيين — فقد اعترفوا لمن سبقهم بالفضل وذكروهم وصححوا مقولاتهم إذا رأوا خطأها فى رفق وإحسان وعرضوا حين عرضوا لنحلهم وأديانهم فى سماحة وارتفاع عن الغمز أو الانتقاص . (راجع هاملتون جب عن دراسة مقاونات الأديان) .

ولم يكن المسلمون فى اقتحامهم لهذا الطريق العلمى مسبوقين إلا بتلك المعارف العامة المختلطة التى تركها اليونان والمصريين والفرس والبابليين وكلها خيوط مضطربة اختلط فيها الحق بالباطل وقد سبقوا بعهد من الركود التام

وهو عهد بنزيطة (مابين القرن الرابع والتاسع الميلادى — الموازى للقرن الثالث قبل الهجرة إلى القرن الثالث بعدها) فإن البيزنطيين دفنوا موروثات اليونان ولم ينظروا فيها .

وفى هذا مايؤكد ما أورده الدكتور عمر فروخ (العلوم ١٩٥٦) من أن الروح العلمية ولدت مع العقل العربى مستقلة عن التوراة واليهود وعن الانجيل والنصـــارى ، وعن الفلسفة اليونانية والبيزنطية . ولا أعلم غير الاسلام ديناً حث اتباعه على العلم ، وأعلن أن العلم لايخالف الدين بل يساعد العقيدة الدينية على الرسوخ ، أما الآيات التى تحث على العلم وتبين مقام العالم فى الحياة فإنها كثيرة كثرة يعيا على الحصر . والاسلام هو (الدين) الذى جعل التكليف (القيام بالعبادات والتقيد بالأوامر والنواهى) على العاقلين وحدهم وهو الدين الوحيد الذى جاء فيه : أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وأن مجلس علم خير من عبادة سبعين سنة .

وقد أصاب ابن رشد : لما ذكر أن الاسلام أوجب التفكير فى مظاهر هذا العالم (فاعتبروا ياأولى الأبصار) هذا نص على وجوب استعمال العقل (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شىء) .

ومن هنا فإن الناحية الأولى فى هذا الاتجاه العلمى الاسـلام : كانت النظر العقلى والتفكر والتأمل والبحث والاستكناه الوجود كله . أما الثانيـة فكانت اتساع الأفق وقبول الصواب من كل جهة جاء منها ولو من المخالفين والخصوم ، وقد ربى الاسلام أتباعه على احترام الحقيقة بقطع النظر عن عن مصدرها ولم يتقدم المسلمين أحد فى هذا .

يقول ابن رشد : يجب أن نستعين على مانحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك سواء كان ذلك الغير مشاركا لنا أو غير مشارك فى الملة، فإن الاله التى تصبح بها التزكية ليست تعتبر فى صحة التزكية بها كونها آلة لمشارك لنا



فى الملة أو غير مشارك ، إذا كانت فيها شروط الصحة وأعنى بغير المشارك لنا فى الملة من نظر فى هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الإسلام » ا . هـ .

وإذا كان هذا هكذا فقد يجب علينا أن ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السابقة نظراً فى الموجودات واعتباراً لها بحسب مااقتضته شرائط البرهان أن ننظر فى هذا الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه فى كتبهم ، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم » .

وقد تبين من ذلك أن النظر فى كتب القدماء واجب بالشرع إذا كان مغزاهم فى كتبهم ومقصدهم هو المقصد الذى حثنا الشرع عليه » .

أما الخاصة الثالثة : فهى التفكير المطلق من كل قيد اجتماعى أو سياسى أو قومى أو دينى » .

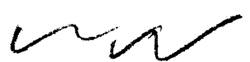
وقد كان من أصل مفاهيم المنهج العلمى الإسلامى : التسامح واتساع الأفق (٢) الملاحظة والتجربة . (٣) السخاء بالمال والوقت والنفس .

وقد آزرت الدولة الإسلامية العلم وأطلقت له حرية البحث وكفلت لأهله الأمان ، أين هذا مما فعلت أوربا بالعلماء حين اعتبرتهم فى زمرة المارقين من الدين وقدمتهم لمحاكم التفتيش .

وتاريخ الإسلام كله حافل بالحث على العلم والدأب على تحصيله ، والولع به واحتمال المشقة فى سبيله والرحلة إلى الأقطار البعيدة من أجله والتنافس فيه ، وقد جاء الإسلام - كما يقول دكتور عبد الوهاب عزام[1] داعياً إلى العلم حاثاً على النظر فى ملكوت السموات والأرض وسمى دستوره :

---

(١) الرسالة : ٣ يوليو ١٩٤٤



الكتاب والقرآن ، وكانت أول كلمة نزلت من القرآن (اقرأ) وحمل العرب أمانة الإسلام ورعوا سنن القرآن حتى صار العالم الإسلامى كله كمدرسة واحدة يجد معلموها ومتعلموها فى التعليم والتعلم ، وبلغ الخلفاء بالعلم والعلماء منزلة التقديس ، وسار الملوك المسلمون على سنن واحدة فى نشر العلم والحث عليه وإعزاز أهله والبذل لهم وبناء المدارس وخزائن الكتب وبلغوا فى ذلك غاية ليس بعدها غاية وصارت الرحلة سنة بين العلماء فمن لايرحل ولايرحل إليه لاينال بينهم مكانة عالية حتى كان أحدهم يبقى فى الرحلة ثلاثين عاماً ويزيد ويعد من شيوخه ألف (من هؤلاء أبو القاسم سليمان بن مطير اللخمى سنة ٣٦٠ هـ) .

وكان عدد شيوخ أبو سعيد التميمى السمعانى أربعة آلاف شيخ ، وكان شيوخ الحافظ بن عساكر ألف وثمانمائة منهم نيف وثمانون امرأة .

وكان أبو الريحان البيرونى يجود بنفسه وقد حشرج وضاق صدره ويسأل صاحبه فيقول : كنت قلت يوماً مسألة كذا وكذا فيقول له صاحبه: أفى هذه الحالة ، فيقول: ياهذا - أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألايكون خير من أن أخليها وأنا جاهل بها .

وكان من سماتهم : التثبت والإسناد : التزموها فى الحديث وأشاعوها فى العلوم الأخرى ومن تثبتهم أنهم لم يكتفوا بما يكتب وحده وسموا من يعتمد عليه صحفياً والتزموا السماع من المشايخ الموثوق بهم والقراءة عليهم، والاستجازة منهم فلم تقبل رواية شفوية أو مكتوبة إلا بسند معقول ولم تقبل الكتب إلا بسبب يصلها بمؤلفها ، ووضعوا للسماع أصولا التزموها واهتدوا بها وكان التعليم فى أكثر مقاعده يراد به وجه الله وحفظ الدين وما يتصل

به وتكميل النفس والاستجابة لنزوعها إلى المعرفة ولم يكن موصولا بالمناصب أو المرتبات .

(٣)

يقول الدكتور فرانتزروزنتال فى كتابه مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى :

لقد كان المؤرخون المسلمون كما كان علماء الدين أيضاً يعتمدون على الوثائق المدونة ولم يكن للمعارف التى تعتمد على الذاكرة شأن فى تأليفهم ولم يستنكف المؤلفون المسلمون عن ذكر (الجذاذات) التى كانوا يدونون عليها الملاحظات أو ينسخون فيها المقتبسات عن الكتب التى كانوا يقرأونها، وينبغى لطالب العلم المسلم أن يعنى بتحصيل الكتب المحتاج إليها فى العلوم النافعة ماأمكنه شراء أو إجازة أوعارية لأنها آلة التحصيل ولا يجعل تحصيلها وجمعها وكثرتها حظه من العلم ونصيبه من الفهم ، ويستحب إعارة الكتب لمن لاضرر عليه فيها ممن لاضرر منه بها وإذا استعار كتاباً فلا يبطىء به من غير حاجة وإذا طلبه المالك فيحرم عليه حبسه ويصير غاصباً له ، وقد جاء فى ذم الإبطاء برد الكتب المستعارة عن السلف نظما ونثراً كبيراً ، ولا يجوز أن يصلح كتاب غيره بغير إذن صاحبه فقلت وهذا محله فى غير القرآن ، فإن كان مغلوطاً أو ممحوناً فليصلحه . وإذا لم يكن خط المصلح مناسباً فليأمر من يكتب ذلك بخط حسن ، ولا يكتب شيئاً فى بياض فواتحه ولاخواتمه . إلا إذا علم رضى صاحبه ولا يعيره غيره ، ولا يودعه بغير ضرورة ، ولا ينسخ منه بغير إذن صاحبه ولا نسخ من الكتاب أو طالعه فلا يضعه مفروشاً على الأرض بل يجعله مرتفعاً وإذا وضع الكتب مصفوفة فليكن على شىء مرتفع على الأرض لئلا تندى فتبلى ويراعى الأدب فى وضعها باعتبار علومها فيضع الأشرف أعلى الكل فإذا استوت كتب فى فن واحد فليراع شرف



المصنف فيجعله أعلى ، وليجعل المصحف الشريف أعلى الكل ، ثم كتب الحديث الصرف كالبخارى ومسلم ثم تفسير القرآن ثم تفسير الحديث ثم الفقه ثم أصول الدين ثم أصول الفقه ثم النحو والتصريف ثم أشعار العرب ثم العروض .

وإذا استعار كتاباً فينبغى أن يتفقده عند إرادة أخذه ورده من ورقة محتاج إليها ، وإذا اشترى كتاباً نظر فى أوله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه واعتبر صحته ، وإذا نسخ شيئاً من كتب العلم الشرعية فينبغى أن يكون على طهارة ومستقبل القبلة ، طاهر البدن والثياب والحبر والورق .

ويبتدىء كل كتاب بكتابة « بسم الله الرحمن الرحيم » وإذا كان مصنفه تركها كتابة فليكتبها هو ثم ليكتب قال الشيخ أو قال المصنف وليختم بقوله : آخر الجزء (الأول أو الثانى) ويتلوه كذا وكذا إن لم يكن أكمل الكتاب فإن أكمله فليقل : تم الكتاب الفلانى ، ففى ذلك فوائد كثيرة وكلما كتب اسم الله تعالى اتبعه بالتعظيم ، مثل تعالى أو سبحانه أو عز وجل أو القدس أو تبارك وكلما كتب اسم النبى صلى الله عليه وسلم كتب بعد الصلاة عليه والسلام ولا يسأم من تكررها ، وإذا مر بذكر أحد الصحابة كتب رضى الله عنه وإذا مر بذكر أحد من الأئمة الأعلام كتب رحمه الله .

وأشار روزنتال إلى الأمانة العلمية : فقال أن العلماء المسلمين كانوا حذرين حريصين على ألا يمسوا النسخ الخطية بإصلاح أو تعديل . وقد عنى علماء الحديث والفقه فى الدرجة الأولى بالأمانة والدقة فى ذكر المصادر المأخوذ عنها لأن « الأسانيد » هى جزء من مادة البحث ، وكل علم آخر له علاقة مباشرة بهذين العلمين : الحديث والفقه ، تأثر إلى حد بعيد بالأسلوب فى دراستهما ومعالجتهما . أما أصحاب الكتب التاريخية فانهم كانوا شديدى

الحرص على ذكر المصادر التي يأخذون عنها وكان المؤلفون الذين يحرصون على ذكر مصادرهم يشعرون بأنهم قاموا بما عليهم .

ويقول : ومن الواضح أن العلماء المسلمين كانوا يقدرون أهل العلم من غير دينهم ويخدمون الثقات منهم أيما احترام ، وقد ألف العلماء المسلمون له كتباً لدحض آراء معينة ، وكلما رأى المؤلف موجباً للنقد فإنه يثبت آرائه وملاحظاته .

وكانت القوائم النقدية لكتب المراجع تحتوى على تقدير المؤلف لكتب من سبقه من العلماء وتقييمها وأحياناً كان العلماء يذكرون هذه الكتب المراجع للتدليل على أن الموضوع الذى سبقت معالجته على أيدى القدماء ينبغى أن يعالج مرة أخرى فى ضوء المعارف الجديدة وبصورة عامة يستطيع القول بأن العلماء المسلمين حرصوا الحرص كله على الحفاظ على الأفكار والأخبار التى كانوا يعتقدون أن لها قيمة فعلية ، وكثيراً ما كان العلماء المسلمون يحاولون وضع مقاييس لتقرير صدق المعلومات لشعورهم بضرورة ذلك عندما يجابهون المشاكل التاريخية التى يبحثونها ويعتقد (الطبرى) أن الظن والحدث لا يصلح أن يكون حكماً فى إثبات الحقائق وأن الحقائق لا يمكن الحصول عليها إلا بواسطة المعلومات التاريخية المتوفرة لدينا ويوصى رشيد الدين عم ابن أبى أصيبعة المؤلفين والمؤرخين أن ينظروا فى كل خبر نظراً عارياً عن محبة أو مبغضة وأن يزنوه بميزان العقل والقياس وأن يتفحصوه » .

(٤)

وقد كشف كثير من الباحثين عن « أصالة المنهج الإسلامى فى دراسات العلوم » الذى يقوم على « التحقق من صحة نسب النص إلى مصدره ، وسلامة

مثله من التحريف والتشويه والخلل ، تقول الدكتورة بنت الشاطىء وكان الظن أننا لم نعرف المنهج قبل الاتصال بالمدارس الغربية ونقل مناهجها فى البحث (ثم تقول : أن العكس هو الصحيح) .

والواقع أن أول من أصّـل هذا المنهج هم علماء الحديث : الذين حددوا ضوابطه فى توثيق الرواية والإسناد والنقل وعنهم أخذ علماء اللغة والأدب والتاريخ فى فحص الأسانيد ونقد الرواة . وبذلك أمكن إخضاع (السنة) لرقابة حاسمة وضعت لها الحدود والقواعد والموازين الكفيلة بسلامة المرويات من شوائب التحريف والغفلة أو التدليس والكذب والوضع .

وتعد مصنفاتهم الأولى : موطأ مالك والأم للشافعى ومسند أحمد بن حنبل منهاجاً للعلماء وتجد تخريج الحديث وفحص سنده ونقد روايته وتمييز ماصح منه فى الكتب الست الأمهات : صحيح البخارى مسلم ، سنن أبى داود، النسائى ، الترمذى ، ابن ماجه .

وتقول الدكتورة بنت الشاطىء أن ضوابط المنهج النقلى يستوعبها سبعون علماً وأنه لا يصح الحديث عندهم إلا إذا اتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة (إلى منتهاه يعنى إلى نهاية الإسناد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم) .

وتقول : أن المراجع للمنهج الغربى فى توثيق المرويات ونقد المصادر وتحقيق النصوص يرى أن الغربيين لم يأتوا بجديد لم يعرفه علماؤنا فى علوم الحديث التى بلغت سبعين علماً . وتشير إلى دراسة روزنتال (مناهج البحث عن المسلمين) وتقول : لقد نسى روزنتال أو غفل عن كون المنهج النقلى للرواية عرفته المدرسة الإسلامية منذ بدء عصر التدوين وقبل مولد



ابن جماعة والعلوى بقرون ذات عدد ورسخت قواعده لدى علماء المسلمين فى بواكير مصنفاتهم فى الحديث والفقه ثم فى التاريخ واللغة إلى أن استقلت بالتأليف فى الكتب المعتمدة لدينا فى مصطلح علوم الحديث مثل كتاب ابن أبى حاتم الرازى (الجرح والتعديل) وكتاب الحاكم النيسابورى فى معرفة علوم الحديث والخطيب البغدادى الكفاية فى علم الرواية ومقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث وشرح نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر لابن حجر العسقلانى » ا . هـ

(٥)

كذلك فإن العلماء المسلمين « أبطلوا صناعة التنجيم وبينوا فساد علم أحكام النجوم التى كانت تعزو كل ممكن وكل خارقة إلى فعل الكواكب وبينوا الخطأ الكبير فيما يزعمه السابقون من أن بعض الكواكب تجلب السعادة وأن بعضها يجلب النحس .

وانتهوا إلى أن هناك معرفة برهانية يقينية إلى أكمل درجات اليقين نجدها فى علم النجوم التعليمى ، أما دراسة خصائص الأفلاك وفعلها فى الأرض فلا نظفر منها إلا بمعرفة ظنية ، وأبانوا أن دعاوى المنجمين ونبوءاتهم لاتستحق منا إلا الشك والارتياب .

وأن ماقاله المنجمون فى سعود الكواكب ونحوسها باطل وأنه ليس على ماوضعوا دليل ولايشهد على صحته قياس ، كذلك فقد آمنوا بتكامل الفكرة والتجربة، والنظرية والتطبيق ، ورأوا أن العالم الذى يقف عندالعلوم النظرية ولايتعداها إلى الجانب العملى هو فيلسوف مزور وباطل ولاصلة بينه وبين الحياة فالحياة علم وعمل .



(٦)

وأعلن العلماء المسلمون أخلاقية العلم وكمال نسبته إلى الخالق تبارك وتعالى وأنكروا تعليل الظواهر بعلل أخرى غير إرادة الله فجعلوا العلم ربانياً في في مصدره وفي مقصده وهدفه .

كذلك فقد جمع المفكرون المسلمون بين العلم والأخلاق دين السياسة والأخلاق وكانوا ينطلقون من قاعدة أنهما شيء واحد ، وأنهما متكاملان وهم في ذلك يختلفون عن فلاسفة أوربا في العصر الحديث (روسو وهيجل وماركس) الذين يفرقون بين السياسة والأخلاق ويفكرون في مشاكل السياسة وموضوعاتها تفكيراً مستقلا عن تفكيرهم الخلقي .

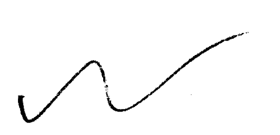
وفي كل كتابات الغزالي (التبر المسبوك) وابن خلدون وابن تيمية وابن طباطبا (الفخرى) والشيرازي والطرطوشي (سراج الملوك) نجد هذه الروح واضحة جلية .

كذلك فإن العلم الإسلامي لم يصطدم بفكرة الصراع بين الدين والعلم التي كانت من أكبر التحديات التي واجهها العلم في الفكر الغربي ، ذلك لأن العلم بدأ من الإسلام أساساً ونشأ في كنفه وتحرك من خلال مناهجه وأسلم وجهه لله .

وأن علماء المسلمين كانوا يؤمنون بأن العقل لا يصل إلى اليقين إلا ضمن دائرة محدودة ضيقة وأنه بحاجة إلى العون الإلهي ليفرق بين الخطأ والصواب وأن العقل كما يقول الإمام الغزالي عاجز في مبدأه وفي طرفه مالم يمده الله بنور من عنده يمكنه من الوصول إلى اليقين ، وأن حقيقة الدين قائمة على أساس الإيمان بالوحي ، وأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفا للغطاء في جميع المعضلات .

ومن أبرز معالم المنهج العلمى الإسلامى :

أولا : تكريم العقل (وليس تقديس العقل) .
ثانياً : احترام الشخصية الإنسانية .
ثالثاً : العدل والمساواة .
رابعاً : الاعتماد على التجربة .
خامساً : الاعتقاد ببقاء النفس بعد البدن .
سادساً : الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة .
سابعاً : القول بإله واحد قديم خلق العالم من لاشىء وهو يمسك هذا النظام القائم لحظة بعد لحظة (لا تأخذه سنة ولا نوم) ويعلم دقائق الأمور كلها (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) .



الفصل السادس

موقف الغرب : العقوق

بدأت نهضة العلم الإسلامى فى المشرق ثم امتدت إلى المغرب فالأندلس فى الوقت الذى كانت أوربا تعيش العصور الوسطى المظلمة التى لم يعرفها غير الغرب ، ولقد كان الاتصال بين الغرب وعالم الإسلام يتمثل فى زيارة علماء الغرب إلى الأندلس ، حيث وجدوا وجوه التقدم الباهر ، وقد استقبلت أوربا معطيات الحضارة الإسلامية بدهشة عجيبة وذلك عندما أرسل هارون الرشيد إلى الامبراطور الرومانى شارلمان تلك الهدايا على ما حكى المؤرخ (أجينا ردو) من فيل عظيم وخيمة مطرزة بأفخم تطريز وأجمله ، وروائح عطرية ثمينة وشمعدانين وساعة مائية ، وكلها أشياء كانت لا تزال مجهولة عن الأوربيين .

وذكر فولتير وغيره من المؤرخين : إن أول ساعة عرفت فى أوربا هى الساعة التى أهداها أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا عام ٨٠٧ م كان لها إثنا عشر باباً صغيراً بعدد الساعات ، فكلما مضت ساعة فتح باب وخرجت منه كرات من نحاس صغيرة تقع على جرس فيطن بعدد الساعات وتبقى الأبواب مفتوحة ، وحينئذ تخرج صور إثنى عشر فارساً على خيل تدور على صفحة الساعة » .

ولقد امتد الاتصال عن طريق الأندلس ، وعن طريق جزيرة صقلية وورودس والبليار وعن طريق الحروب الصليبية ، وكان أقوى مصادرها الأندلس التى صادر الغربيون معاملها ومعاهدها وجامعاتها ، وأجلوا المسلمين

عنها ، ثم سيطروا سيطرة تامة على هـذه المصادر ، ونسبوا علومها ومعطياتها إلى علمائهم وحجبوا أصحاب الفضل الأصليين وهم المسلمين فيما أطلق عليه من بعد اسم « مؤامرة الصمت » .

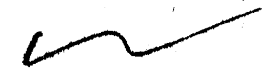
يقول الفيلسوف جارودى : كانت مؤامرة الصمت التى ارتكبت ضد الثقافة الإسلامية منظمة تنظيما محكما .

وهى مؤامرة امتدت وقتاً طويلا رمى خلالها المسلمون بالإنكار والغبن، وحجب دورهم ، وكان غاية الإنصاف أن يقال إن المسلمين حفظوا تراث اليونان وردوه إلى الغربيين ، تقول الدكتورة سجريد هونكه فى كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) .

Le Soleil d' and Uah Brille
Sui L' occidant

لعل التعصب هو الذى حمل الغرب دائما على تشويه منجزات العرب العظيمة ، وطمس مساهمتهم الأساسية فى الحضارة الأوربية . إن طبيعة العلاقات بين الغرب والعالم العربى منذ ظهور الإسلام إلى يومنا الحاضر ، لتبين كيف يمكن للمواصف والأهواء أن تملى التاريخ بصورة معينة ، أى بصورة مشوهة ، وأبعد ما تكون عن الصدق ، وحين كانت أوربا غارقة فى ظلمات العصور الوسطى وجهالتها ، وقف العرب على أبوابها يرفعون مشعل الحضارة طوال سبعة قرون لشد ما يغبن حقهم من يكتفى بالقول أنهم نقلوا التراث القديم إلى العالم الغربى بعد ما حفظوه من الدمار ، فذلك يعنى فى الواقع التقليل من قيمتهم والسكوت عن الأمور الجوهرية فى عملهم الحضارى وجعلهم مجرد وسطاء ليس غير ، والحقيقة أن سائر مناحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى الغرب مدموغة بآثارهم .

إن قواميس اللغات الأوربية تضج بالكلمات العربية سواء ما يتعلق



منها بالحاجات اليومية أو الأطعمة أو الألبسة أو العقاقير ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالملاحة وفنونها واصطلاحاتها ، وقد أخذ الغرب من العرب فكرة البريد كما نقلوا كثيراً من فنون الزراعة . وقد أخذ الغرب الأرقام الهندية في أواخر القرن الحادى عشر ، وكانت معروفة عند الهنود منذ القرن السادس بعد المسيح ، ويعود الفضل الأكبر في تعريف الغرب على الأرقام العربية إلى الخوارزمى الذى نقلت كتبه جميعاً إلى اللاتينية ، وكانت مرجعاً هاماً للعلماء الغربيين ، ولا يزال الغرب يعترف بفضل الخوارزمى ، وما تزال كلمة (لوغاريتما) مشتقة من إسمه . كان العرب يعرفون النجوم وحركاتها ويفهمونها أعظم من الإغريق والرومان ، ويسمونها بأسمائها ، ويجمعونها في كوكبات تمثل مشاهد من حياتهم اليومية .

وقد شيدوا مراقب أشهرها مرقب المأمون في بغداد ودمشق ، والعزيز والحكيم في القاهرة . ولعل الساعة التي أهداها هارون الرشيد إلى شارلمان عام ٨٠٧ تشكل برهاناً ساطعاً على المقدرة الفنية التي توصل إليها العرب في ذلك الحين ، وكان العرب يسعون إلى اكتشاف الجواب الوحيد على أية مسألة علمية معينة ، ولا يكتفون من أجل ذلك بمشاهدة واحدة أو عشر مشاهدات ، بل يقومون بالمئات منها ، ولقد حسنوا دون انقطاع ما يملكون من أدوات المشاهدة ، وبذلوا عناية أعظم في استقصاء السماء بحيث توصلوا إلى اكتشافات لا حصر لها : منها تحديد مدارات الشمس والقمر والنجوم بصورة متزايدة الدقة ، وتدقيق لوائح بطليموس وتحسينها ، ووضع لوائح أخرى خاصة بهم ظل الغرب يستخدمها حتى أيام كوبرنيكوس وأشهرها لوائح الخوارزمى ولوائح ابن يونس والتبانى .



وقد توصل فلكي بغداد في نهاية القرن العشر إلى أقصى ما يمكن بلوغه دون عدسات أو مناظير ، ولنذكر من هؤلاء الفلكيين ، الفرغانى ، الذى كان سباقاً إلى اكتشاف أن الشمس والسيارات ترسم مدارات في الاتجاه

المعاكس للحركة النهارية و « ثابت بن قره » الذى حسب ارتفاع الشمس الظاهر ، وطول السنة الشمسية ؟ والتباني الذى حقق منجزات فلكية عديدة والبيروني الذى صاغ نظرية دوران الأرض حول محورها وحول الشمس، وابن الهيثم الذى اشتهر فى ميدان البصريات أكثر منه فى مجال الفلك .

فقد كان ابن الهيثم أول من قرر أن الرؤية تتم ليس بواسطة شعاع تطلقه العين فى اتجاه الأجسام المضيئة إلى العين التى تراها إذن بواسطة لجسمها الشفاف ، ووضع نظرية الظل ، وكان سباقاً إلى استخدام الغرفة المظلمة فى تجاربه .

وفى مجال الجبر وقف الإغريق والهنود عند حد محدود ، ولكن العرب جمعوا بين حس الكميات الحسابية وحس الكميات الهندسية بحيث لم يخلقوا فروعاً علمية جديدة فحسب ، بل طوروا بعض الفروع الأخرى حتى درجة من النضج لم يبلغها الإغريق أو الهنود قط ، ولهذا كان العرب لا الإغريق أساتذة الرياضيات فى عصر النهضة ، ويكفى أن نذكر مؤلفات الجبر لأبى كامل والبيرونى وابن سينا وعمر الخيام الذى رفع الجبر إلى دقة لم يتمكن أحد من الارتقاء إليها حتى ديكارت الفرنسى فى القرن السابع عشر .

وكان العرب أول من استخدم الفاصلة للإشارة إلى الكسور كما أسسوا علم المثلثات والحساب الستينى وقسموا الدائرة إلى ١٦٠ درجة ، ووضعوا الحساب التفاضلى الذى أسسه ابن سينا والغزالى ، وأخيراً فإن نظريات الفارابى فى الفنون الموسيقية قد قادته قاب قوسين أو أدنى من اللوغاريتم وأن نظريته فى المقادير المتناهية فى الصغر مع نظرية ابن سينا ، قد ألهمت العلماء الغربيين الذين تعمقوا بعد عدة قرون ، هذه الميادين واستثمروها .
لقد كان النور الذى أحدثته الشرارات المنطلقة العبقرية العربية فائقاً للغاية، ولعل الطب هو أهم مجالات التفوق العربى .



ولقد كان العرب يمارسون التلقيح ضد الجدرى ، ويكفى أن يذكر المرء « الرازى » الذى كان أحد الأطباء فى كل الأزمان وابن سينا الطبيب الأكبر وابن النفيس الذى اكتشف دوران الدم الصغير قبل وليم هارفى الانجليزى بأربعمائة عام ، وعبد اللطيف البغدادى الذى قال : مهما كان احترامنا لجالينوس عميقاً ، فإننا نفضل أن نصدق عيوننا الخاصة .

وكان العرب مهرة فى الجراحة وخاصة فى أمراض العين ، كما كانوا أول من طبق طريقة التخدير العام فى العمليات الجراحية كما كانوا يستخدمون التعقيم بواسطة الكمادات الحارة ، بل لقد كان يطبقون طريقة المعالجة بمضادات الحيوية ، وقد ترك العرب مؤلفات طبية تفوق مؤلفاتهم فى أى ميدان علمى آخر ، وقد خدمت هذه المؤلفات فى تعليم أجيال عديدة من الأطباء الغربيين .

ولقد نادى النبى العربى بالطموح إلى المعرفة فى كل مكان وزمان ، لأن المعرفة تنير سبيل الإيمان ، وهكذا لم ينصرم القرن الإسلامى الأول المكرس للفتوح حتى ازدهر العلم العربى مثل محيط من الزهور ، بينما كانت الكنيسة فى الغرب تخنق العلم الوثنى ، كان العرب يستولون على الغنيمة الفكرية الضرورية من أجل ثقافتهم ، من الإغريق ومن فارس ومن لدن الصينيين والهنود على السواء .

وحين كان الغربيون يباهون بجهلهم القراءة والكتابة ، كان الشعب العربى بأسره يؤم المدارس ، ولا عجب بعد ذلك إذا ازدهرت الثقافة ، وإذا عمد العرب بعد ما استقوا من الينابيع المتوفرة من قبل إلى تفجير ينابيعهم الخاصة وحين أخذ العرب هذه الأشياء جميعاً عنهم فانهم لم يكونوا مجرد وسطاء لنقلها فحسب ، وإلا فان الإغريق هم وسطاء أيضاً ، والهنود ، فكل عصر يستولى على الميراث العلمى السابق له ، وبقدر ما يسقط هذا

الميراث فى يد خلاقة ، فانها تعدل فى جوهره وتحوله وفق ناموسها الخاص .

إن مآثر العرب الخالدة لتقوم فى تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجربة للمعطيات العلمية الموروثة عن الإغريق ، وإن العرب هم مبدعو التجربة بالمعنى الدقيقة للكلمة ، وهم الخالقون الحقيقيون للاستقصاء العلمى ، فقد كانوا أول من جعل من الوقائع المعزولة عن متنها نقطة الانطلاق لكل بحث وعندئذ أصبح الارتقاء الصبور من الخاص إلى العام أو الطريقة الاستقرائية: الطريقة العلمية الأساسية .

وإن الفكر الغربى لم يستيقظ من ذلك الخدر الذى أثقل عليه طوال قرون ، بل طوال ألف عام ، ويفرد جناحيه لكى يطير إلا بعد ما استملك المنجزات العربية فى الميادين التقنيية والصحية والإدارية ، ثم بعد ما ابتنى هذه المنجزات على المستوى الحضارى » .

هذه هى كلمة الحق التى جاءت أخيراً من الغرب بعد أكثر من خمسمائة عام على الأقل من التماسه المنهج التجريبى الإسلامى ، أمضاها الغربيون فى مراوغة شديدة وعقوق وعجز عن الإنصاف . ولم ترتفع فى هذه الفترة إلا أصوات قليلة من المنصفين: منهم جوستاف لوبون ، ودرابر ، وجورج سارطون وهونكه .

يقول جوستاف لوبون : ثبت الآن أن تأثير العرب فى الغرب عظيم كتأثيرهم فى الشرق ، وإن أوربة مدينة للعرب بحضارتها ، حقاً ، إن تأثير العرب فى الغرب لم يكن أقل منه فى الشرق ، ولا يمكن إدراك أهميه شأن العرب فى الغرب إلا بتصور حال أوربة حينما أدخل العرب الحضارة إليها .

فاذا رجعنا إلى القرن التاسع من الميلاد حين كانت حضارة العرب الأندلسية فى أوج نضارتها رأينا أن مراكز الثقافة فى الغرب كانت أبراجاً يسكنها أمراء إقطاعيون متوحشون يفخرون بعجزهم عن القراءة وأن أكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان المساكين الجاهلون الذين كانوا يقضون أوقاتهم فى ديارهم ليكشطوا بخشوع كتب الأقدمين النفيسة وليكون عندهم بذلك من الرقوق ماهو ضرورى لنسخ كتب العبادة . مضت مدة طويلة قبل شعور أوربا بهمجيتها ، ولم يبد ميلها إلى العلم إلا فى القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر من الميلاد فلما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل عنهم وولوا وجوههم شطر العرب . ولم تكن الحروب الصليبية سبباً فى إدخال العلوم إلى أوربا كما يظن على العموم ، وإنما دخلت العلوم أوربة من أسبانيا وصقلية وإيطاليا ففى ١١٣٠ م أنشىء فى طليطلة مكتب الترجمة تحت رعاية رئيس الأساقفة رعوية فصار هذا المكتب ينقل إلى اللغة اللاتينية أهم كتب العرب وقد روى الدكتور لوكيز فى كتابه الذى سماه (تاريخ الطب العربى) أن عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية يزيد على ثلاثمائة كتاب ولم تعرف القرون الوسطى كتب قدماء اليونان فى الحقيقة إلا فى ترجماتها العربية وإذا كانت هناك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا ما انطوت عليه القرون القديمة من العلوم . فالعرب هم تلك الأمة ، لارهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم فى إنقاذ تلك الكنوز الثمينة قال مسيو ليبرى « لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الحديثة إعدة قرون . أن عرب الأندلس هم الذين صانوا فى القرن العاشر من الميلاد العلوم والآداب التى أهملت فى كل مكان حتى فى القسطنطينية فالى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم ونذكر منهم على حسب بعض الروايات التى لاتزال موضع جدل : جربرت الذى صار باباً فى سنة ٩٩٩ ملقباً بلسفستر الثانى

ولما أراد هذا البابا أن ينشر فى أوربة ماتعلمه عد الناس ذلك من الخوارق واتهموه بأنه باع روحه من الشيطان . ولم يظهر فى أوربا قبل القرن الخامس عشر من الميلاد عالم يكتف بما فى كتب العرب فعلى كتب العرب وحدها عول : روجر بيكون وليونارد البيزى وارنود الفيلنوفى وريمون لول وسان توما والبرت الكبير والأدفونش العاشر القشتالى .

قال مسيو رينان : أن البرت الكبير مدين لابن سينا وسان توما مدين فى فلسفته لابن رشد : وقد كانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس فى جامعات أوربا نحو ستة قرون ويمكننا أن نقول أن تأثير العرب فى بعض العلوم كعلم الطب مثلا ، دام إلى الزمن الحاضر . فقد شرحت كتب ابن سينا فى مونبيليه فى أواخر القرن الماضى .

وقد بلغ تأثير العرب فى جامعات أوربا من الاتساع ماشمل بعض المعارف التى لم يحققوا فيها تقدماً مهماً كالفلسفة مثلا .

ولم يكن نفوذ العرب فى جامعات إيطاليا ولاسيما جامعة بادو أقل منه فى فرنسا فقد كان للعرب فيها شأن كالذى كان للاغريق واللاتينية بعد عصر النهضة » .

هذه شهادة جوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب وهى تدحض روح الحقد البالغة التى أشاعها المستشرقون وأتباعهم من دعاة التغريب فى العالم الإسلامى بانكار فضل الإسلام على العلم الحديث .

ويصور هذا دكتور عبدالحليم منتصر حين يقول : أن كثير من مؤرخى العلم يصرون على تأريخ العلم بعصرين لاثالث لهما : العصر الإغريقى وعصر النهضة الأوربية الحديثة التى بدأت فى القرن ١٤ ، ١٥ وعندى أن فى ذلك ثلاث مغالطات لابد للباحث من العناية بها وتصحيحها .

(الأولى) إغفال ماقبل العصر الإغريقى من حضـــارات كالصينية

والسومرية والآشورية والبابلية والفينيقية والمصرية القديمة إذ أن العلم الإغريقى لايمكن أن يكون قد ظهر فجأة أو أنه لم يستفد من الحضارات التى تقدمت عليه فى التاريخ .

(الثانية) إدماج العصر الاسكندرى فى العصر الإغريقى فقـــد حملت الإسكندرية مشعل الحضارة العلمية عدة قرون .

(الثالثة) تجاهل فضل العلماء العرب فى العصر الإسلامى الذى ازدان بعشرات ومئات من العلماء الذين يزدان بهم العلم فى كل عصر » .

وكذلك نجد فى عصرنا هذا من يساير هذا الاتجاه المنكر للحق والمعترض على الاعتراف بالفضل لأهله فيما كتبه أمثال سلامة موسى وأمير بقطر[1] ولويس عوض وغيرهم بينما نجد أن كثيراً من علماء الغرب الذين وقفوا على الحقيقة لم يلبثوا أن انصفوا أنفسهم وتراجعوا عن هـذا العقوق . وردوا للمسلمين فضلهم ممايرويه الدكتور عمر فروخ إن العلامة جورج سارطون كان يعتقد بأن جل تراث العالم موروث عن اليونان عند مابدأ كتابه الضخم : مقدمة لتاريخ العـــلم عام ١٩٢٧ غير أنه لما ولج باب البحث والتنقيب تجلت أمامه حقيقة حدته إلى تعديل رأيه فسارع إلى تغيير تصميم الكتاب وانبرى إلى دراسة العربية فأقام مكباً على تعلمها سنوات فى بيروت .

وأعلن أن العالم مدين للعرب بالمحافظة على التراث اليونانى أولا وبما أضافوه عليه من مبتكرات علمية ونظرية ثانياً وبنقله مع تلك الزيادات المبتكرة إلى الغرب ثالثاً . وبين أن اللغة العربية كانت دون جدال لغة العلم

(١) أشار إلى هذا محمد جميل بيهم فى كتابه (العرب والشعوبيات الحديثة) .

والفلسفة والتجارة من القرن التاسع إلى القرن الثانى عشر وأنها حفظت تراث العالم العلمى وحافظت عليه ونقلته حتى الصين شرقاً إلى الأندلس .

ومما أورده جورج ساطون فى كتابه (مقدمه لتاريخ العلم) قوله :

نحن نعلم أن أصول العلم الغربى — لا أصول الدين والفن فحسب — شرقية مصرية وبابلية وإيرانية . لقد برهنت أن ثلاثة قرون على الأقل (من القرن التاسع إلى القرن الحادى عشر) شهدت تفوق العلوم عند العرب وقد ظل أمام العرب مجال متسع الأكناف للجرى فى ميدان العلوم الرياضية والطبيعية وعلى الأخص فى البصريات . ومع أن علماء الإسلام والنصرانية واليهود قد استووا فى هذا الميدان وتشابهت فيه جهودهم ، إلا أنهم كلهم قد شربوا من معين واحد هو كتاب « المناظر لابن على محمد بن الحسن البصرى » المعروف باسم ابن الهيثم . أما أعظم جغرافى هذا العصر بين المسلمين وغير المسلمين على السواء فقد كان الملك المؤيد أبا الفداء صاحب حماه ، فقد كان وصف فى كتابه لعلوم البلدان خطوط الطول وخطوط العرض على وجه الدقة أو على وجه التقريب وكذلك كثر المؤلفون من المسلمين فى التاريخ الطبيعى وتفوقوا على غيرهم ثم اهتموا بالتطور خاصة حتى قادهم إلى البحث فى طبقات الأرض فأصابوا فى كثير من الملاحظات كالمسعودى والبيرونى ومثل ذلك كان شأن العرب فى الطب والتشريح وعلم وظائف الأعضاء وأن أبرز الاكتشافات فى علم وظائف الأعضاء خاصة ، فقد قام بها المسلمون فى سوريا أو فى مصر كابن النفيس الذى توفى فى القاهرة ١٢٨٨ قبل بدء القرن الرابع عشر باثنى عشر عاماً . إن ابن النفيس قد اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل أن يعرف ذلك ميخائيل سرفيث الأسبانى بمائتين وخمسة وستين عاماً .

وقد عرف العرب لابن النفيس فضله فى ذلك بينما أحرق سرفيث الأسبانى

علناً فى جنيف بسويسرة عام ١٥٥٣ م بأمر المصلح الدينى كالفن ولا غرو فان الكنيسة كانت تحظر على رجالها الاشتغال بالطب لأن الطب صنعة علمانية لاتتفق مع مقام رجال الدين ، أما التشريح فقد كان فى أوربا النصرانية ممنوعاً البتة، فاذا جئنا إلى الإسلام رأينا أن صناعة التشريح قد بلغت الذروة وخصوصاً فى المغرب وما يقال عن الطب والتشريح عامة يقال عن أمراض العين خاصة . فان المسلمين كانوا لايزالون حتى القرن الثالث عشر قادة العالم فى أمراض العين . وكان المؤرخون المسلمون فى هذا العصر كثيراً تقدمهم القلقشندى والمقريزى وأبا الفداء والنويرى وسواهم ممن كانوا على جانب عظيم من الأهمية والشهرة مع كثرة عددهم .

أنك لن تدرك عظمة العرب العلمية حتى تدرك الروح التى كافحوا بها فى سبيل العلم لقد عد بعضهم المعارك الصغرى والكبرى على السواء التى خاضها العرب ضد الفرنجة فى الأندلس وحدها منذ عام ٧١٠ م حينما نزل العرب على شاطىء الأندلس إلى عام ١٤٩٢ حينما غادروا الأندلس نهائياً فكانت نحو ٣٧٠٠ معركة وأن أمة تكون أيديهـا مغلولة بثلاثة آلاف وسبعمائة معركة تنتهى بزوالها عن أرضها وديارها وأموالها ثم لا تنمى رسالة العلم المقدسة بل تبلغ بالعلم والتفكير ذروة الرقى والتقدم لأمة عظيمة حقاً .

ومثل هذا يقول العلامة درابر فى كتابه (نماء أوربا العقلى) .

تأخذنا الدهشة أحياناً عندما ننظر فى كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد إلا فى زمننا كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العضوية وتدرجها فى كمال أنواعها ، فان هذا الرأى مما يعلمه العرب فى مدارسهم وكانوا يذهبون إلى أبعد مما ذهبنا ، فكان عندهم عاما يشمل الكائنات العضوية والمعادن والأصل الذى بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى المعادن فى أشكالها .

وقال : لما ثبت قدم العرب فى بلاد الأندلس بادروا إلى العمل على نشر العلم والحضارة وقد نقلوا إلى الغرب جميع المبادىء التى قامت عليها حضارتهم فى آسيا وكان أول ما التفتوا إليه هو نشر المعرفة وتظليلها بحمايتهم . وقد ازدهرت فى عهدهم المدن وأقرب مثال لها قرطبة فقد كانت تتألف من مائة ألف بيت يسكنها مليون من النسمات ويكفى أن تعرف أن شارعها الأكبر كان بطول عشرة أميال ويضاء ليلا للمارة بمصابيح كبيرة وذلك مشهد من مشاهد الحضارة لم تعرفه مدينة لندن إلا بعد ذلك بسبعمائة عام ، وكانت طرقاتها مرصوفة بالأحجار فى حين أن باريس ظلت قروناً بعد حضارة العرب فى الأندلس مبركا للمياه والأوحال التى تغوص فيها الأرجل إلى الركب فى فصل الشتاء ولم يقتصر الأمر على قرطبة بل أن غرناطه وأشبيليه وطليطلة كانت مدناً أشباهاً لقرطبة ونظائر وكانت قصور الأمراء مثلا فى الفخامة الشرقية بل كانت متاحف للفنون الرفيعة وعنواناً على حضارة عريقة فى حين أن المنازل التى سكنها أمراء ألمانيا وفرنسا وانجلترا لم تكن بفضل حظائر الماشية فى شىء فهى بلا مداخن أو نوافذ وكان المخرج الوحيد الذى يسلم إلى فضاء الجو كوة فى أعلى السقف ينصرف منها الدخان .

ذلك أن جهازات التهوية الصناعية كانت من الأشياء التى اخترعها العرب فى فن البناء واستعملت لأول مرة فى قصور الأندلس فضلا عن المكتبات النادرة ، وكان الماء يجرى دافئاً أثناء الشتاء وبارداً مثلوجاً أثناء الصيف وأن مكتبة الخليفة الحاكم رصدت كتبها فى فهرس بلغت مجلداته أربعين مجلداً .

وأشار محمد إقبال فى كتابه (تجديد الفكر الدينى) إلى ما كتبه بريفولت من أن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربى على أيدى معلميه العرب فى الأندلس وقد عاش فى القرن الثالث عشر ثم يقول : وليس لروجر بيكون ولا لسميه (فرانسيس بيكون الذى عاش ما بين أواخر القرن السادس عشر والسابع عشر) ليس من الحق أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج

التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلامى إلى أوربا المسيحية وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

وأشار إلى هذا المعنى كثير من الباحثين الغربيين فقال يوسف شخت :

تتلمذت أوربا على العرب مدة خمسة قرون نهلت فى أثنائها من حياض العلوم العربية ، ويقول فون كريمر : أن العقل العربى يبدو فى ذروة نشاطه حين يكون فى حقل المعرفة التجريبية يباشر دراسته فى ضوء الملاحظة والاختبار . فالعرب يبدون نشاطاً واجتهاداً يثيران الدهشة حين يقومون بملاحظة الظواهر وتمحيصها وجمعها وترتيب ماهدتهم إليه التجربة ولما كانوا أصحاب ملاحظة دقيقة وأهل تفكير مبدع أصيل فقد حققوا فى مجال الرياضيات والفلك إنجازات رائعة .

وقال سيديو : أن الحركة العلمية عند العرب تتميز بالانتقال من المعلوم إلى المجهول والتحقيق الدقيق فى ظواهر السماء ورفض كل حقيقة كونية لم تثبت عن طريق الملاحظة الحسية .

وقد أشار إلى هذا المعنى عدد كبير من الباحثين فى السنوات الأخيرة .

أولا : (إلى إنكار فضل المسلمين) أشار إليه (جـ . ب . ترنيه : حين قال لم يكتف الأسبانيون بمكابرتهم فى الاعتراف بفضل الإسلام عليهم وعلى المدنية الغربية الحديثة بل أنهم يحتقرون كل من تحدثه نفسه منهم بالتفكير الحر المجرد من الغاية ويرجع ذلك إلى ماغرسه مؤرخيهم فى نفوسهم من الحقائق المعكوسة عن الإسلام وإلى ميل كتابهم لنسبة كل ما هو حسن إلى أصل لاتينى لكن الحق لابد أن يظهر ويعلو وما شوهته الأغراض

لابد أن تطهره الأيام حتى يخرج بجوهره حراً خالياً من الشوائب والملفقات .

ثانياً : (تأكيد أثر المسلمين فى الدراسات الحديثة) قال ادلار : أنى وقائدى ودليلى هو العقل فقد تعلمت شيئاً من أساتذتى العرب وأنى قد تعلمت شيئاً مختلفاً عنه[1] .

---

(١) أحصينا فى كتابنا (صفحات من أمجادنا) نيف وعشرون شهادة للكتاب الغربيين المتصنفين .

الفصل السابع

سبق علماء المسلمين

إن الوثائق التي تكشفت في السنوات الأخيرة تستطيع أن تعطي صورة واضحة للسبق الذي حققه علماء المسلمين في مختلف مجالات العلم .

هذا السبق الذي يبدأ بأمرين هامين :

(الأول) بناء المنهج التجريبي .

(الثاني) نقد المنهج اليوناني .

أما المنهج التجريبي فقد أقامه المسلمون على الاستقراء والقياس والتمثيل وضرورة الاعتماد على الواقع الموجودة ومنه انطلقوا إلى تصحيح أغلاط أرسطو وجالينوس وأفلاطون في الفلسفة والعلوم ، ونقدوا نظام بطليموس في الفلك وأبانوا موضع الضعف فيه ، وكان البتاني من أهم من تصدوا لذلك ، وحقق مواقع كثير من النجوم وصحح حركات القمر والكواكب السيارة ، وخالف بطليموس في ثبات الأوج الشمسي .

وأنكر الغزالي ما قاله فلاسفة اليونان من أن بالسماء حيوان وإن له نفساً ، وأنكر العلماء المسلمون القول بأن بعض الكواكب يجلب السعادة وأن بعضها يجلب النحس ، وقالوا : إن الذين قالوه أخذوه تقليداً من غير برهان ولا قياس ، وقال ابن حزم : زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل ، وإنها ترى وتسمع ، وهي دعوى باطلة بلا برهان ، وصحة الحكم أن النجوم لا تعقل أصلا ، وإن حركتها أبدا على رتبة واحدة لا تتبدل عنها ، وهذه



صفة الجماد الذى لا اختيار فيه ، وأن ليس للنجوم تأثير فى أعمالنا ، ولا لها عقل تدبرنا به ، إذ النجوم لا تدلك على الحوادث المقبلة . ورفض ابن النفيس قبول نظرية جالينوس الخاطئة فى الدور الذى تلعبه الرئتان فى نقل الدم من تجويفة القلب الواحدة إلى الأخرى .

وقد قام المنهج التجريبى الإسلامى على التوحيد بين النظر والعمل: مختلفاً بذلك عن المنهج اليونانى ، وكان اتجاه البيرونى وجابر بن حيان إلى الكم والتجربة خروج مباشر على المفهوم الإسلامى لمنطق أرسطو ، وقد اتجه المسلمون إلى مجال الطب والعلم وليس إلى مجال الفلسفة الإلهية ، وأدركو « علل الأشياء » كأساس للمعرفة العقلية . وهى الخطة التى فسر بها ابن خلدون حركة التاريخ .

(٢)



وهذه بعض الوجوه التى سبق فيها علماء المسلمين غيرهم من الغربيين الذين تسلموا ما بدأوه وزادوا عليه (ثم ادعى بعضهم أنه هو صاحب السبق ثم كشفت الأيام زيف دعواه) .

أولا : سبق ابن الهيثم : (بيكون) فى طريقته الاستقرائية وسما عليه فقد كان أوسع منه أفقاً وأعمق تفكيراً ، وقد جمع ابن الهيثم بين الاستقراء والقياس ، وقدم الاستقراء على القياس . وأعلن أن وجود الشرط الأساسى فى البحث العلمى هو طلب الحقيقة دون أن يكون لرأى سابق أو نزعة من عاطفة أياً كانت أى دخل فى الأمر .

وكان ابن الهيثم أول من أعلن منهج البحث العلمى فى عناصره الثلاث: (الاستقراء والقياس والتمثيل) قبل فرنسيس بيكون (١٦٢٦) بثمانية قرون .

ثانياً : وضع ابن حزم نظرية المعرفة قبل : (كانت) بسبعة قرون

وحل أعظم مشكلة فى تاريخ نظرية المعرفة . هذه المشكلة التى زعم مؤرخو الفلسفة الحديثة إن حلها كان من نتاج عبقرية الفيلسوف الألمانى كانت .

ثالثاً : نظر ابن خلدون لفلسفة الاجتماع قبل مونتسكيو وتارد ودوركهايم وآدم سميث بثلاثة قرون ، قرر ابن خلدون أن الظواهر العمرانية فى تزاحمها وتواليها ، تحكمها قوانين ، وكانت وسيلته فى الدراسة الاستقراء والقياس وبدأ هذه الفكر الاقتصادى والفكر الاجتماعى .

رابعاً : سبق المعرى : (دانتى) الذى تأثر فى كتابته (الكوميـــديا الإلهية) بما كتبه المعرى فى رسالة الغفران ، وكان دانتى قد قرأ كتاباً عربياً يدور حول فلسفة الحشر العربية الإســـلامية ترجم إلى اللاتينية والفرنسية ، كان معروفاً فى إيطاليا فى القرن الرابع عشر ثم وضع الكتاب فى بلاط الفونسو بمدينة أشبيليه ونقل إلى اللغة القشتالية قبل عام ١٢٦٤ بزمن طويل ، ويؤكد المستشرق الإيطالى فرانسسكو غابريتى أن الكاتب الإيطالى (بونا فنتيورا) قد أخذ نص الترجمتين الفرنسية واللاتينية الموازيتين له ، ومخطوطة إحداهما لا تزال محفوظة فى أكسفورد ببريطانيا .

ويؤكد المستشرق الإيطالى فى بحث له (١) بتأكيد ارتباط دانتى بالفلسفة الإسلامية ، وإنه قرأ ابن عربى وأبى العلاء وعنهما تأثر فى رسم صورة الحشر لجاءت مشابهة لفلسفة الحشر الإسلامية .

خامساً : ابن مسكويه سبق دارون .

وقد أشار كثير من الباحثين إلى مجمل الآراء التى أوردها دارون المتوفى ١٨٩٥ قد جاءت فى كتابات ابن مسكويه وإخوان الصفا وابن خلدون ، وخاصة فكرة نشوء الحيوان من النبات .

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى م ٣٣ — ١٩٥٨ .



سادساً : الطرطوشى سبق ميكافيلى .

كذلك فقد أشار الباحثون إلى أن مجمل الآراء التى أوردها ميكافيلى فى كتابه (الأمير) قد أوردها (أبو بكر محمد بن محمد الطرطوشى) فى كتابه (سراج الملوك) سابقاً إياه بأكثر من خمسة قرون .

سابعاً : سبق المسلمون علماء الغرب فى معرفة كتابة المكفوفين وفى مقدمة هؤلاء (على بن أحمد بن يوسف بن الخضر) المشهور بزين الدين الآمدى ، فقد سجل صلاح الدين بن ايبك الصفدى فى كتابه نكت الهميان فى نكت العميان الذى استطاع أحمد زكى باشا شيخ العروبة أن يحصل على نسخة منه ، هذا السبق يقول : إن زين الدين الآمدى كان إذا طلب منه كتاب وكان يعلم أنه عنده نهض إلى خزانة كتبه واستخرجه من بينها ، كأنه قد وضعه لساعته ، وإن كان الكتاب عدة مجلدات وطلب منه الأول مثلا أو الثانى أو الثالث أو غير ذلك أخرجه لعينه وأتى به ، وكان يمس الكتاب أولا ثم يقول: يشتمل هذا الكتاب على كذا وكذا كراسة فيكون الأمر كما قال ، وإذا أمر يده على الصفحة قال عدد أسطار هذه الصحيفة كذا وكذا سطراً ، وفيها بالقلم الغليظ كذا ، وهذا الموضع كتب به فى الوجهة وفيها بالحمرة هذا وهذا الموضع كتابته فيها بالحمرة من غير إخلال بشىء مما يمتحن به ويعرف أثمان جميع كتبه التى اقتناها بالشراء ، وذلك إنه كان إذا اشترى كتاباً بشىء معلوم أخذ قطعة ورق خفيفة وفتل منها فتيلة لطيفة وصنعها حرفا أو أكثر من حروف الهجاء لعدد ثمن الكتاب بحساب الجمل ، ثم يلصق ذلك على طرف جلد الكتاب من داخل ويلصق فوقه ورقة بقدره لتتأبد ، فإذا شذ عن ذهنه كمية ثمن كتاب ما من كتبه مس الموضوع الذى علمه فى ذلك الكتاب بيده فيعرف ثمنه من بين العدد الملصق فيه .

ثامنا : ابن النفيس « على بن حزم القرشى » كبير أطباء مصر فى مستهل

القرن الثالث هو أول من كشف الدورة الدموية الصغرى ، وأول من دحض نظرية جالينوس التى كانت سائدة حتى ذلك العهد . وقال لابد من نفوذ الدم من التجويف الأيمن للقلب إلى التجويف الأيسر حيث تتولد الروح ، ولكن ليس بين التجويفين منفذ ، فإن جرم القلب هناك مصمت ليس فيه منفذ ظاهر ولا منفذ غير ظاهر يصلح لنفوذ هذا الدم ، كما ظنه جالينوس ، فان مسام القلب هناك مستحفصة وجرمه غليظ ، فلا بد وأن يكون هذا الدم إذا لطف نفذ فى الوريد الشريانى إلى الرئة لينبث فى جرمها ويخالط الهواء ويتصفى ألطف ما فيه وينفذ إلى الشريان الوريدى ليوصل إلى التجويف الأيسر من تجويف القلب ، وقال إن الدم لا يمكن أن ينتقل من البطين الأيمن إلى الأيسر خلال حاجز له ليس منافذ ، وإنما يسير من البطين الأيمن إلى الرئة ومن الرئة إلى البطين الأيسر ، وهذه هى الدورة الدموية الصغرى .

وبذلك فقد سبق ما ذهب إليه وليم هارفى الذى جاء بعده بأكثر من أربعمائة سنة وقام بتجاربه على ضوء أبحاث ابن النفيس ومن تلاه ، وقد ظل كشف ابن النفيس نسيا منسيا إلى أن أظهره ماكس مايرهوف عام ١٩٢١ .

تاسعا : غياث الدين جمشيد الكاشى سبق الغرب إلى اختراع الكسور العشرية . وقد ردد كتاب الغرب نسبة اختراع الكسور العشرية (النظام العشرى) إلى عالم رياضى إسمه سيمون ستيفن ١٦٢٠م ، غير أن بول كولى الألمانى أعلن عام ١٩٤٨ أن اختراع الكسور العشرية يجب أن ينسب إلى العالم الرياضى : غياث الدين جمشيد الكاشى الذى عاش حوالى ١٦٠ عاما قبل ستيفن وتوفى عام ١٤٣٠ فى كتابه مفتاح الحساب والذى توجد فيه نسخا فى مكتبات ليدن / ولندن ، وبرنستون . وقد ذكر الكاشى فى مقدمة الرسالة ، إنه قد اخترع الكسور العشرية ليسهل الحساب الأشخاص الذين يجهلون الطريقة الستينية .

عاشراً : وضع العرب علم الأرقام الذى عرفه العالم كله واستعمله بديلا للأرقام اليونانية أو الرومانية ، التى كانت لا تساعد على الحسابات العليا ، وقد استنبط المسلمون أرقاما جديدة تعتمد فى قيمتها على ما لها من زوايا ، فرقم (١) يمثل زاوية واحدة فهو رقم واحد ، ورقم (٢) يمثل زاويتين فقيمته إثنان وهلم جرا . ثم استنبطوا لكل رقم قيمة ذاتية وهى التى ترمز إليها زواياه .

تقول الدكتورة سجريد هونكه ولولا الأرقام العربية ما استطاع العالم إصدار التذاكر أو تدوين أسماء الأشياء ، ولا طبع دليل تليفون أو تقرير سوق الأوراق المالية ، ولولا هذه الأعداد العربية ما قام هذا البناء الشامخ الخاص بالرياضيات والطبيعيات والفلك أو الطائرات والسفن عابرات المحيطات ، وكذلك الطبيعة النووية وغيرها ؟ وتقديراً لفضل العرب على الإنسانية خلد العالم إسمهم بتسمية هذه الأعداد : الأعداد العربية .

حادى عشر : سجل المؤرخون للمسلمين إنشاء الصواريخ ، وقد أشار إلى هذا المؤرخ رشيد الدين ، فقد أشار إلى انتصار المغول على الصينيين فى حرب الصواريخ ، وقال : لقد استعان كوبلاى خان بالسلطان العربى الذى استجاب إلى طلب كوبلاى خان وأمر بأن يرسل إليه المهندس الذى حضر من بعلبك ودمشق وأبناء هذا المهندس هم أبو بكر وإبراهيم ومحمد ، وقد بنوا بمساعدة الفنيين الذين رافقوهم سبع آلات كبيرة وتوجهوا إلى المدينة المحاصرة ، وتتساءل سجريد هونكة التى أوردت هذه الواقعة فتقول : هل سبق أن ساهم المهندسون العرب فى فك الحصار المضروب حول مدينة (بينين كينج) عام ١٣٣٢ م أيضا . وهل هذا السلاح العجيب الذى استخدم هو بعينه الذى هاجم به القائد المصرى فخر الدين جيش الإفرنج وملكهم لويس عام ١٢٤٩ حيث دارت رحى المعركة الصليبية للحملة الخامسة واستخدم القائد المصرى فخر الدين نيرانا عربية جديدة ، وأثار هذا السلاح الجديد الخوف والفزع فى صفوف الصليبيين .

ثانى عشر : كان ابن رشـــد أول من قال بأن الزمان معنى ذهنى لا وجود له على الحقيقة والزمان شىء يفعله الذهن فى الحركة لأن الزمان ليس شيئاً غيرما يدركه الذهن من هذا الامتداد المقدر للحركة ، فالزمان ليس بذى وضع .

وهذا ما قال به كانت الألمانى المتوفى ١٨٠٤ بعد أكثر من خمسمائة سنة .

ثالث عشر : النظرية المعروفة فى علم النفس باسم رد الفعل الشرطى والمنسوبة إلى بافلوف قال بها الإمام الغزالى قبله بقرون طويلة . يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى :

إن بافلوف كان يجمع طائفة من الكلاب ثم يقدم لها طعاماً مصحوباً بقرع جرس ، فكان كلما قدم لها الطعام تقوم باستجابة انفعالية يظهر أثرها فى سيلان لعابها ، ثم إنه بعد تكرار هذه العملية مقدار أربعين مرة قرع لها الجرس دون أن يقدم طعاماً ، فاستجاب فيها أيضاً ذلك الانفعال وسال لعابها ، فأدرك بافلوف من تلك النتيجة أن المظهر أو الشكل الذى يصحب المثير الطبيعى مدة يتخذ شكل ذلك المثير ويؤدى أثره .

ولقد أورد الإمام الغزالى هذه النظرية فى كتابه المستصفى (ج١ ص٥٩) فى مجال غير هذا المقال فقال : إن ما يرى مقرونا بالشىء يظن أن الشىء أيضا لا محالة مقرون به مطلقا ، ولا يدرى أن الأخص أبداً مقرونا بالأعم ومثاله نفره نفس السليم وهو الذى نهشته حية عن الحبل المبرقش اللون ، لأنه وجد الأذى مقرونا بهذه الصــورة فتوهم أن هذه الصورة مقرونة بالأذى دائما . ويسمى الغزالى هذا القانون « سبق الوهم إلى العكس » ، أما بافلوف فأطلق عليها « رد الفعل الشرطى » وقد استنتج الغزالى هـــذا القانون من القواعد المنطقية الفكرية دون أن يحتاج إلى معونة الكلاب ،

أما بافلوف فأطلق عليها «رد الفعل الشرطي» وقد استنتج الغزالي هذا القانون دون أن يحتاج إلى معونة الكلاب؟ أما بافلوف فقد تجاهل أو فرض أنه ليس هناك قانون منطقي للنفس يمكن الاعتماد عليه في استنباط مثل هذه النظريات .

رابع عشر : يعد أبو القاسم الزهراوي أول من أوقف النزيف من الشرايين الكبيرة بربطها ، وقد سبق به الجراح الفرنسي (أبرواز باري) المتوفي ١٠٥٢م بحوالي ستمائة عام .

وإليه يرجع الفضل في عملية (تخييط) الجروح من الداخل بحيث لا تترك أثراً على سطح الجلد ، وكذلك طريقة استعمال التخييط بواسطة إبرتين وخيط واحد مثبت بهما ، واستعمل الخيوط المصنوعة من أمعاء القطط في جراحات البطن والأمعاء ، وأول من وضع نظرية الجفت الذي يستخرج به الجنين من بطن أمه وسبق بمئات السنين (ولشر) في وصف الوضع الذي تكون عليه المرأة ساعة الولادة ، وقام الزهراوي بإجراء عمليات في المهبل وأوجد مرآة خاصة للمهبل ومن آلاته آلة لتوسيع عنق الرحم (الدكتور محمد أبو شوك) ، وقد خلف الزهراوي مئات الرسوم للآلات التي تستخدم في الجراحة .

خامس عشر : فطن علماء المسلمين قبل أن يفطن المحدثون من الأوربيين إلى قصور الحواس عن إدراك بعض الظواهر لفرط صغرها أو بعدها ، فعوضوا قصـــور الحواس باختراع أجهزة وآلات تمد من قدرتها على الإدراك . كذلك لم يفت المسلمون الاهتداء إلى التجربة العلمية ومعرفة دورها في البحث العلمي ، فلم يكتفوا بمراقبة الظاهرة وتسجيل حالها ، بل تدخلوا في ســـيرها ليلاحظوا في ظروف هيئوها بأنفسهم ، وأعدوها بإراداتهم وقد سماها (جابر) التدريب وسماها (ابن الهيثم) الاعتبار ، وفطنوا فوق ذلك إلى أن الغرض من الدراسات التجريبية هو وضع القوانين العامة التي تفسر الظواهر تفسيراً علمياً . ومن أجل ذلك استعانوا بآلات



صنعوها بأنفسهم سواء فى مجال الطب أو الضوء . وقد أخذ عنهم الأوربيون هذا الأسلوب ولم يكونوا فيه سابقين ، وبينما كان المسلمون يعالجون مرضاهم بالأسلوب العلمى كانت أوربا تعالجهم بطرد الشيطان .

سادس عشر : كان الحسن ابن الهيثم أول من حلل الحركة إلى قسطين متعامدين فى مستوى خط الحركة والعمود عليه . وكان هذا فى القرن الحادى عشر أى قبل جاليلو بأكثر من خمسمائة عام ، وقد طبق نظريته الميكانيكية هذه على شعاع الضوء واعتبره مكونا من كرات صغيرة أقرب إلى الجواهر الفرده وكل كرة إنما تصطدم بالسطح الذى تسقط عليه ، فهى تنعكس بحيث إن زاوية السقوط تساوى زاوية الانعكاس ، ومن هذه النظرية وضع (اسحق نيوتن) نظرية الجسيمات فى الضوء ، وكان الحسن بن الهيثم هو أول من فكر فى وجود (محور إسناد) وبناء عليه فان كل قانون من قوانين الطبيعة ثابت فى جميع محاور الإسناد الذاتية ، وقد جاء (جاليلو) وطبق نفس الفكرة حيث افترض زمنا لكل نقطة فى الفراغ وافترض ثبات الحركة الكلية، أى أنه لم يأخذ فى الحسبان فكرة الديمومة، وفكرة التفاعل . وبذلك وضع ابن الهيثم اللبنة الأولى لعلم الميكانيكا الكلاسيكية ، ثم تبعه ديكارت وفرما وجاليلو ونيوتن .

سابع عشر : العرب هم الذين اكتشفوا أمريكا قبل كولمبس بثلاثة قرون ، أعلن ذلك الدكتور هوى لين الصينى فى المؤتمر ١٧١ للجمعية الشرقية قال : كل طفل يتعلم أن كولمبس هو الذى اكتشف أمريكا عام ١٤٩٢ ، ولكن قام دليل قوى أن العرب سبقوا كولمبس ، وقال إنه أنفق ثمانية أعوام فى تتبع هذا الأمر ، وقد وصل إلى أن البحارة العرب قاموا قبل عام ١١٠٠ م من الطرف الغربى للعالم الإسلامى من ميناء الدار البيضاء على التحديد ، ورسوا بسفنهم فى عدة مواضع على طول الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية .

ثامن عشر : اعترف الغرب بجبر الخوارزمى ، وفى القرن الثانى عشر ترجم جيرار الكرمونى رسالته إلى اللاتينية ، وحتى القرن السادس عشر ظلت هذه الترجمة هى الكتاب الرئيسى لتعليم الرياضيات فى الجامعات الأوربية ، ولكن سلطان الخوارزمى لم يقف عند حدود الجامعات ، بل تجاوزها وذهب إلى أبعد منها بكثير ، فاننا نجده منعكسا فى المؤلفات الرياضية التى وضعها (ليوناردو فيوناتشى) والمعلم يعقوب الفلورنسى ، وحتى فى مؤلفات ليوناردو دافنشى .

تاسع عشر : أعلن الدكتور اسكندر فون هومولدت فى كتابه (كوسموس) أو الكون الكبير : إن جملة تأثير العرب فى العالم المتمدن فى حقل العلوم الطبيعية كان فى تقدم الكيمياء ، فبظهور العرب على مسرح التاريخ بدا حقل جديد فى العلم فى عالم الغرب ألا وهو الكيمياء .

يقول الدكتور محمد يحيى الهاشمى : تطورت الكيمياء العربية ، وكان لها أبطال مشهورون كالرازى والصمرانى والجلدكى وغيرهم ، وكما يحدثنا به ليو الأفريقى فقد بقيت الكيمياء فى أسبانيا تحت قيادة العرب حتى سقوط غرناطة ، وانتقلت بعد ذلك إلى فاس ، وعن طريق أسبانيا وإيطاليا وخاصة صقليا التى حفظت التراث العربى مدة طويلة ثم ولجت هذه الصيغة أوروبا حيث نشأت نواة الكيمياء الحديثة عندما أعدته من تراث فكرى قيم ، كان مصدراً لإنتاج أدبى وفنى وروح ديناميكية حركية تهدف للسيطرة على الكون وقلب جوهر المادة ، حيث نجد آثارها اليوم فى الطاقة الذرية والصواريخ الموجهة عبر القارات والكواكب الصناعية . ونفاجأ اليوم بأن العالم النفسى الشهير (يونج) من خلفاء فرويد ونرى فى حملة اكتشافاته تفسيره الكيمياء القديمة بأنها « اللاوعى البشرى » من نواحى الشخصية ، والهدف الأسمى الإنسانى فى تكريم جوهر الإنسان ورفع شأنه فى هذا الكون ، وقد عرف هذه الحقيقة علماؤنا من قبل ، وقد ألف الإمام الغزالى

كتابا بعنوان : « كيمياء السعادة » وكلمة الكبريت الأحمر أى (الأكسير) كانت معروفة فى القرنين ١١ ، ١٢ م ، وقد جاء ذكر ذلك فى فتوح الغيب لعبد القادر الجيلى المعروف بالكيلانى ، بأنه كان يستعمل فى مواعظه الكبريت الأحمر كرمز معروف على مدلوله الكيميائى وانتقاله إلى النفس البشرية » .

العشرون : عومل علم المثلثات كعلم مستقل لأول مرة على يد المسلمين فقد كانت المثلثات تدرس كجزء من الفلك وقد تم فصلها على يد نصير الدين الطوسى فقد عالج نصير الدين فى كتابه (شكل القطاع) المثلثات لا كمقدمة للفلك بل كعلم مستقل (دكتور محمدزايد) .

الواحد والعشرون : المسلمون أول من أضفى على الجغرافيا ثوبها العلمى . ومآثرهم كانت فى الجانبين الحسابى والفلكى . وقد قاسوا بأنفسهم طول الدرجة الأرضية ، وكان الرقم الذى توصلوا إليه أقرب إلى الصحة من باقى الأرقام التى توصل إليها اليونان وقد بلغت الدرجة الأرضية بحسب قياسهم ستة وخمسين ميلا وثلثى الميل ولم يختلف هذا المقياس إلا قليلا عن المقاييس الحديثة نظراً لأن الآلات التى استعملوها لم تكن دقيقة .

وقد قاس (المراكشى) أحد جغرافى شمال أفريقيا عروض مائةوخمسة وثلاثين مكانا ، قاسها بنفسه وهى من الدقة بحيث يعتبرها (كبل) أعظم مآثر المسلمين الجغرافية .

الثانى والعشرون : فى مؤتمر العلوم الدولى الثامن فى فلورنسه بإيطاليا عام ١٩٥٦ أثبت العلماء أن نظريات (ليوناردو دافنشى) الفنان الإيطالى فى الصخور والجبال وطبيعة الحفريات ، وهى المعلومات القيمة التى بدأ بها علم الجيولوجيا فى الغرب كان قد اقتبسها من كتاب الشفاء لابن سينا .

الثالث والعشرون : أثبتت المخطوطات القيمة المكتشفة أخيراً لابن البتان العالم الفلكى الإسلامى أنه هو الذى أصلح قيمة الاعتدالين الصيفى والشتوى وقيمة ميل معدل فلك البروج على فلك معدل النهار . وأنه ابتكر طريقة يمكن بها رؤية القمر عند ولادته .

(اعترف بهذا كارل نلينو ، وفرنت جينيت) .

الرابع والعشرين : أعلن العلامة التركى السيد سهيلى : أن نظرية الحركة عند العلماء المسلمين والتى من مصادرها ابن الهيثم وابن سينا والرازى أمكن على ضوئها إثبات جذور النسبية الحديثة .

الخامس والعشرون : يعقوب بن الصبـــاح الكندى : سبق فرويد وماكدوجل فى علم التحليل النفسى ومداواة الأمراض النفسية بالألحان الموسيقية .

السادس والعشرون : أعلن لونجو الإيطالى اكتشـــاف أوراق لاتعمل فيها النار فى إيطاليا فى القرن السابع عشر ولدى التتبع التاريخى قال أن هذا الاكتشاف كان معروفاً عند المسلمين وقد ذكره المسعودى فى كتابه (أسرار الخلفاء) كما بينه ياقوت فى معجمه والبيرونى فى كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر نقلا عن جابر بن حيان .

السابع والعشرون : أعلن أحد أساتذة جامعة تمبل فى فلادلفيا فى كتاب له بعنوان الكيمياء والصناعات فى العراق القديم : أن الأفران والمواقد وأجهزة التقطير والتصعيد والتكثيف هى من أجهزة المسلمين وأن المصطلحات الخاصة بالكيمياء والمعادن لها أصل قديم لكلمات عربية .

الثامن والعشرون : عرف المسلمون (الصفر) ولم يعرفه الغرب إلا فى القرن الثانى عشر عن طريق المسلمين وقال العلامة (ابر) أن فكرة الصفر تعتبر من أعظم الهدايا العلمية التى قدمها المسلمون وكانوا قد عرفوه منذ للقرن الثامن الميـــلادى ورسموه على هيئة حلقة ثم غيروه تدريجياً حتى أصبح نقطة .

* * *

لحق : أشار الباحث العلامة يوسف مروه وهو من كبار علماء الرياضيات العرب فى العصر الحديث فى بحث مطول وسجل الملاحظات الآتية :

(١) روجر بيـكون تأثر إلى حد كبير بكتاب الفريد فى البصريات ليعقوب بن الصباح الـكندى — والأسرار لأبى بكر الرازى والمناظر لابن الهيثم واقتبس كثيراً من النظريات التى وردت فى هذه الـكتب ونسبها لنفسه .

(٢) فتيليون : تأثر بابن الهيثم وأخذ عنه طريقة الاستعانة بالمعادلات الرياضية لمعالجة بحث (انـكسار النور) وبعض الصيغ الفيزيائية الهامة فى الانـكسار للضوئى .

(٣) تيجوبراهى : تأثر بنظريات أبى الوفاء والبوزجانى والبتانى والصوفى وابن يونس ونسب اختراع الأسطرلاب لنفسه بينما هو من اختراع الفلـكيين العرب فى مرصدى بغداد والرقة .

(٤) فرما : نسب إلى نفسه نظرية كان قد اكتشفها الرياضى المسلم أبو الوفا فى المثلثات .

(٥) ريجيومونتانوس : انتحل نظريات البطروجى وأبى الوفاء فى المثلثات الـكروية ونسبها إلى نفسه .



(٦) توماس باكر: أخذ طريقة حل المعادلات التكعيبية عن أبي الوفاء والمجريطي وادعى أنها له .

(٧) بول دانيلو وكبلر وكوبرنيكس : تأثروا جميعاً بنظريات وآراء ابن الهيثم ومعادلات الخوارزمي وأبي الوفاء في الجبر والمثلثات .

(٨) جون واليس: الرياضي الشهير درس بدقة أبحاث ناصر الدين الرياضية التي برهن بها بديهية أقليدس في التوازي واستعمالها في تفسير الهندسة الإقليديسية .

(٩) نيوتن : لم يكتشف قانون الجاذبية إلا بعد تخرجه من جامعة كمبردج حيث درس المترجمات اللاتينية لكتب أبي سهل الكوهي وابن الفرا ابن إسماعيل الجزي اللذين كتبا في الأثقال والجاذبية أشياء كثيرة .

وقد أخذ عن البيروني فكرة تفسير النور بأنه ذرات رمادية صغيرة .

(١٠) ديكارت : أخذ عن البيروني فكرة الامتداد التي هي ركن من الأركان الهامة في فلسفته ، وعن الخوارزمي أخذ أصول الهندسة التحليلية وربط نظريات الجبر بالأشكال الهندسية .

(١١) سرفيتوس : أخذ في اكتشافه في تنقية الدم والدورة الدموية من ابن النفيس .

(١٢) ليبنز : أخذ عن الرازي رأيه في تركيب الكون وأصله ونتيجة لآراء الرازي وضع مذهب الوحدات .

(١٣) اسكندر الهالي : توماس اليوركي ، البرت الكبير ، توماس الأكويني : تأثروا جميعهم بنظريات ابن سينا وانتحلوا بعضها .



(١٤) والتون : أخذ بنظرية الرازى فى تركيب الجوهر الفرد عندما وضع نظريته الذرية الجديدة عام ١٩٠٨

. . .

ولاريب أن هذه الحقائق كلها وهى مدعومة بالأسانيد تكذب ماذهب إليه دعاة التبشير والاستشراق والتغريب من أن المسلمين نقلة ولم يزيدو فيما نقلوه ، أو أنهم جماعة حمالين : حملوا فكر اليونان إلى الغرب فى حين أن المسلمين ناقشوا ونقحوا وصححوا وراجعوا مانقلوه وزادوا فيه وكان لهم على العموم منهج جديد وعلى الخصوص فى كل مسألة رأى .

الباب الثانى

العلم فى قبضة الغرب

أولا : العلم فى قبضة الغرب .

ثانياً : الداروينية ونظرية التطور .

ثالثا : سقوط نظرية دارون .

رابعا : العلم والنظرية المادية .

خامسا : علم الغرب فى ضوء الإسلام .

الفصل الأول

العلم فى قبضة الغرب

انتقل العلم التجريبى من عالم الإسلام إلى الغرب عن طريق الأندلس ، ثم لم يلبث أن توقف الجهد العلمى الإسلامى المبذول . وبدأت مرحلة جديدة أصبح فيها العلم والتجريب فى قبضة الغرب .

ومنذ ذلك الوقت أخذ العلم يخطو خطوات واسعة حتى بلغ غايات كبرى من العطاء فى مختلف مجالات الصناعة والآلة والفلك والطب حتى نقل البشرية إلى عوالم الكهرباء والذرة غير أن الغرب حين بدأ جولته مع العلم كانت له مفاهيمه العقائدية وأوضاعه الاجتماعية وتراثه الهلينى القديم مما لم يستطع معه أن يتقبل الإطار الإسلامى الذى حرك فيه مفاهيم العلم وغاياته ، وسرعان مافصل بين معطيات العلم وبين مايتصل بالأساليب والأطر الإسلامية التى قامت فى ظل مفهوم الإسلام للعلم من حيث أن الإسلام هو مصدر العلم ومن حيث الضوابط التى رسمها الإسلام لحركة العلم وجهة وعطاءاً ومن ثم دخل العلم الغربى فى صراع مع المفاهيم الدينية الغربية التى كانت تحاول أن تحد من خطوة وتهاجم معطياته وتعارض منجزاته ، هذه المعركة التى يطلق عليها معركة الصراع بين الدين والعلم ، والتى كانت بعيدة الأثر فى اندفاع العلم إلى التحرر النهائى من إطار الدين ثم فى هجومه العاصف على الدين ، وجريه وراء إنشاء مفاهيم لدين جديد هو دين البشرية ، وفصل الأخلاق عن الدين وبالجملة فقد فصل العلماء بين الدين والعلم فصلا تاماً وكسروا تلك الرابطة العميقة :

رابطة التكامل بين الروح والمادة والنفس والجسم ، وسادت روح المادية

الخالصة ، واندفع العلم إلى منطلقات واسعة وحرة ، كان فيها متجهاً إلى غايتين خطيرتين :

الأولى : مؤازرة السيطرة الاستعمارية والتسلط على الشعوب والأمم المتخلفة وتبرير ذلك فلسفياً وإعطاء القوة المادية هذه الوجهة فى الإبادة والقتل والسيطرة .

الثانية : مداهمة الشهوات والأهواء واللذات فى فتح الباب أمام الرغبات النفسية والجنسية فقد استخدم الغرب العلم فى هدم الضوابط الأخلاقية والقيم وتبرير الحريات الفردية وإعلاء صيحة الخوف من الدمار الشامل الذى يدفع الإنسان إلى التعجيل باقتناص اللذات .

نعم لم يلبث العلم أن يتخلص من النزعة الأخلاقية فأصبح فى خدمة النفوذ الاستعمارى الذى أعلى من شأن العنصر الأبيض حامل لواء الحضارة ، وفى خدمة الاستهلاك والترف وأدوات الزينة والمسارح وعلب الليل وجميع ألوان الفساد الجنسى .

ثم أصبح العلم يمتلك قوى هائلة مدمرة تتحرك فى دائرة الصراع الدولى وتتخذ من هذه القوة وسيلة لسيطرة فريق على فريق وقيام ذلك الصراع الممتد المستمر بين المعسكرات وبين القوى العسكرية والحربية المتزايدة فضلا عن زيادة اختراع أدوات الدمار وقد استطاعت إحدى الدول عن طريق اكتشاف الذرة من فرض السيطرة على دولة أخرى وإرغامها على التسليم دون مبالاة بالآثار الخطيرة التى ترتبت على هذا التصرف بسحق الملايين من البشر .

وهكذا انتقل العلم التجريبى الإسلامى من الأندلس إلى أوربا وقد جرد من طابعه العلمى وأعاد الغرب صياغته من جديد وكأنه من إنتاجه الخاص ،

وفق مفاهيم وأخلاقيات جديدة أصبح العلم فيها مارداً خطيراً ، وعندما وقع الصراع بين مفاهيم الدين الغربي التي عارضت معطيات العلم ومنجزاته ، استعلى العلم وقطع الطريق بينه وبين الدين كلية بمعنى الروح والأخلاقيات والمعنويات جملة .

وانتهت معركة الصراع بين العلم والدين بانتصار الفلسفة التي تلقفت مفاهيم هذا الصراع فنحت الدين كلية عن مجال الحياة ودفعت العلم إلى طريق محفوف بالمخاطر ، وقد سقطت عنه كل الضوابط والمقومات التي تجعله في مأمن من الخطر والتي تحقق به للإنسانية غاية كريمة .

في هذه المرحلة ونتيجة للبوارق الأولى التي لمعت في أفق العلم ظهرت « النظرية المادية » التي حاولت أن ترد أصول الأشياء كلها إلى المادة والتي أنكرت غير المحسوس كله من غيب ودين روحي ، والتي أنكرت وجود الخالق تبارك وتعالى والتي استعلت استعلاءاً كبيراً حين أعلنت أن الطبيعة تصنع نفسها وأنها موجودة وجوداً ذاتياً وباقياً لانهاية له وأن الكون صدفة والتي أعلنت نظريته الحتمية . وأذاعت بأن العلم يستطيع أن يفسر كل الأمور ويجيب على كل الأسئلة وأنه حين يسيطر يستطيع أن يقيم للبشرية نظاماً اجتماعياً خالياً من العقبات وأن يحل مشاكل البشرية كلها .

وقد سقطت من بعد كل هذه الدعوات الباطلة وعاد العلم يعترف بأنها كانت فروضاً ولقد كان للفلسفة دورها الخطير في دفع عجلة المادية إلى غايتها في إفساد المجتمعات ، وفي تدمير الحضارة فقد اتخذت فروض العلم الأولى أساساً لإقامة أيديولوجيات فكرية وكانت تلك الفروض بمثابة المسلمات فقد تحدثت عن قداسة العقل وجلال العلم مما زاد التفرقة بين العنصرين المتكاملين ، وعمقت الهوة بين الروح والمادة والجسم والنفس وبين العلم والدين وبين الدنيا والآخرة ، حين طمست مفهوم الإيمان بالله والأخلاق

الإنسانية ولقد كانت كل محاذير العلم وأزمته التى هى أزمة الحضارة البشرية والإنسان المعاصر لها مركزة فى تجاهل العلم للمصدر الأول والأوحد للكون والعالم والإنسان والعلم جميعاً وهو الحق تبارك وتعالى خالق كل شىء ، وكان خطأها الأكبر فى رد كل ظواهر الحياة إلى ما أطلق عليه المادة أو الطبيعة كما أنه دفع العلم إلى مجال السيطرة المادية فى عنف وقسوة بالشعوب الضعيفة دون تقدير للاخاء الإنسانى أو الأخلاقيات التى تقضى بالرحمة أو العدل أو السماحة وهذا هو الإطار الذى دعت الأديان العلم إلى التحرك فى داخله .

ثم جاءت مرحلة النفوذ الأجنبى والغزو الثقافى التى عملت إلى نقل نظريات الفلسفة المادية إلى عالم الإسلام - دون حقائق العلم التجريبى نفسه - والتى حجبت عن الشعوب المتخلفة — فى محاولة لإثارة الشبهات فى النفوس وخلق أجواء من التشكيك والريب وإنشاء مفاهيم فلسفية معارضة لمفاهيم الدين الحق تقوم على المادية الخالصة بالإضافة إلى المحاولات الأخرى التى جرت لبعث مفاهيم الوثنية والفكر البشرى القديم .

فظهرت تلك الدعوى التى حمل لوائها شبلى شميل والمقتطف ومجموعة من الماديين من بعدهم والتى حاولت أن تنقل إلى أفق الفكر الإسلامى مفاهيم التطور والمادية التى دعا إليها دارون فى أسوأ تفسيراتها التى قدمها المادى العريق بخنر ، وفى أشد تحولاتها التى قام بها سبنسر وهيكل وغيرهما من زعماء المادية فى محاولاتهم التى جرت إلى خلق منهج اجتماعى عام أساسه المفهوم المادى الذى أنشأه دارون وقد رفضت العقيدة الاسلامية هذا المفهوم وحطمته ، ولكن مناهج التعليم والدراسات والجامعات فى العالم العربى والاسلامى حتى اليوم ماتزال تقدم مفهوم دارون المادى فى بدأ الخلق وهو مفهوم مخالف للفطرة والعقل والدين الحق ، وقد أنشأ ذلك تضارباً وصراع بين نفوس الشباب المسلم وعقولهم وأنشأ ازدواجاً خطيراً بين مفهوم الدين الحق وبين مفهوم الفكر المادى .

وإذا كان دور (دارون) يجب أن يفهم فانه قد بدأ من نقطة لاتعارض

الدين ولكن الذين صنعوا (الفلسفة المادية الحديثة) وجهوا مقررات دارون وجهة أخرى ، وإذا كان سبنسر قد تحدث عن التطور المطلق وأدخل النظرية البيولوجية إلى ساحة العلوم الاجتماعية فإن ديكارت هو الذى فصل بين المادى والمعنوى وأقام ذلك المنهج الذى مزق وحدة الفكر الانسانى وفتح الطريق أمام تمزق الانسان .

ولقد كان لانفلاق الذرة أثرها البعيد المدى فى تغيير منطلق العلم ، وذلك بعد أن تراجع العلم عن غروره فأعلن أن عمله لا يتجاوز دراسة ظواهر الأشياء ، وأنه لا يستطيع أن يقرر شيئاً بالنسبة للوجود الانسانى ، كذلك فإن انفلاق الذرة حطم النظرية التى قام عليها العلم فى اتجاهه المادى وانكشف الضوء عن معرفة جديدة قوامها ترابط عالم الغيب وعالم الشهادة فقد كشف انفلاق الذرة عن حقيقة خطيرة هى أنه لا توجد مادة منفصلة وطاقة منفصلة ولكن المادة تتحول إلى طاقة والطاقة تتحول إلى مادة .

وبهذا الكشف عن حقيقة قديمة . تغيرت مقررات العلم وتحطمت نظريات فلسفية كثيرة قامت على هذا المفهوم المادى ومنها النظرية الماركسية نفسها ، وكان من نتيجة ذلك أن ظهرت أبحاث علمية جديدة تؤكد أن العلم قد استطاع أن يصل إلى الحقيقة الأساسية الكبرى وهى أن الله تبارك وتعالى هو صانع الكون وهو الذى يديره لحظة بعد أخرى كما تبين فساد فكرة المادية وفكرة الصدفة وفكرة الجبرية وهى الركائز التى قامت عليها الفلسفة المادية .

وبالرغم من أن العلم قد أطلق هذه الحقائق واعترف بها فان الفلسفة المادية مازالت تصر فى عناد وتعصب على مفاهيمها الباطلة التى تحطمت بمفهوم العلم التجريبى نفسه ، والتى ليست فى حقيقتها إلا مجموعة من الفروض تجاوزها العلم التجريبى الصحيح ولكنها مازالت أساساً لمفاهيم الفلسفات المادية والوجودية والوضعية المنطقية .



(٢)

اتخذ العلم في قبضة الغرب من النجاح الذى أحرزه في تفسير بعض قوانين الكون والوصول إلى اكتشاف بعض سنن الطبيعة ، طريقاً إلى الاستعلاء على مفهوم الحقيقة الدينية الأولى . وهى أن الله تبارك وتعالى هو الخالق والصانع وهو الذى أتاح للإنسان بتوجيهه إلى الكشف والتجربة الوصول إلى معرفة هذه الحقائق .

ولكن العلم في قبضة الغرب عمد منذ اللحظة الأولى أن التنصل من هذه الحقيقة الأساسية وقد شاد بنائه كله بدونها ، ومن ثم فقد عجز أن يعرف الوجهة الحقيقية للعلم والغاية منه ، وعجز أن يحركه في إطار المنهج الربانى الصحيح .

إن الخلاف الذى وقع فيه علماء التجريب مع رجال الدين كان حول مجموعة من النتائج التى كشف عنها العلم والتى وجد رجال الدين أنها تختلف مع وجد في كتبهم وتفسيراتهم ، ولكن هذا لم يكن ليحول بين رجال العلم وبين فهم المنطلق الطبيعى للعلم باعتباره فرع من المعرفة الإنسانية التى قدمتها الأديان أساساً والتى تجرى في إطار منهج الله للأمم والمجتمعات .

إن الخلاف بين رجال الدين ورجال العلم كان في الأغلب يجرى حول النفوذ المتزايد لرجال العلم والنفوذ المتقلص لرجال الدين ، ومن هنا دخل الصراع دائرة العنف حين حكمت الكنيسة بالموت على أصحاب النظريات العلمية الجديدة أمثال جاليلو وغيره .

غير أن رجال العلم قد زاحم نفوسهم غرور شديد واستعلاء كبير بتلك المعطيات التى وصلت إليهم عن طريق التجربة فكان موقفهم منها موقف الإحساس بأنها من نتاج عقولهم وعبقريتهم وخبرتهم ، وقد عزلوا عن

مفهوم رسالة الإنسان وحركته وما أتاح الله للانسان من أسباب العقل والقدرة على إستكناه الظواهر والكشف عن القوانين وأثاره الأرض للبحث عن كنوزها ومكنونها ، وأن هذا كله فى مفهوم الدين الحق هو جزء من العطاء الربانى وكان شأنهم فى هذا شأن قارون الذى قال (إنما أوتيته على علم عندى).

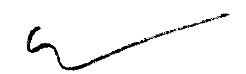
ولقد استعلى رجال العلم فى تلك المراحل الأولى استعلاءاً شديداً بأن نسبوا إلى الطبيعة كل ما فتح الله تبارك وتعالى أمامهم من آفاق . وقد كانوا فى المراحل الأولى يذكرون الله تبارك وتعالى ولكنهم كانوا يأخذون بمفاهيم الفلسفة اليونانية القديمة وخاصة مفهوم أرسطو ومن ثم عجزوا عن أمرين :

عن أن الله تعالى هو الخالق لهذا الكون من عدم وأنه تبارك وتعالى هو الذى يمسك هذا النظام لحظة بعد لحظة عن أن ينهار .

نجد هذا التجاهل والقصور فى الفهم واضحاً فى كتابات دارون ومن جاء بعده فدارون يقول : « ان الطبيعة تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها . وأن تفسير الحياة بتدخل الله يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع ميكانيكى بحت » .

والواقع أن دارون والذين جاءوا بعده كان ما تحت أيديهم من الأدلة والوقائع والتجارب قليلا وليس صالحاً فى ذاته لتقرير هذا الأمر على أنه حقيقة مسلم بها وأن العلم فيما بعد ، بعد أن توفرت له أسباب التجارب والأدلة قد رجع عن هذا الرأى فيما رجع عنه من إطلاقات لم تكن محكمة .

ولقد كان هذا الفهم القاصر والخاطىء للطبيعة هو مقدمة المذهب المادى ، والعلمانية وتلك الاندفاعة الخطيرة التى ساق إليها العلم الغربى البشرية ، فقد كانت مفاهيم العلم التى أطلقتها هذه المرحلة بعيدة الأثر فى الفلسفات الاجتماعية والاقتصادية والعلوم النفسية والأخلاقية .



وكان أخطر الإنحرافات هو ذلك الفهم المادى القاصر للطبيعة وإعطائها صفة القدرة والخلود وتصورها وكأنها قد خلقت نفسها وما تزال تدير نفسها والقول بأن المادة لاتفنى ، بينما الحقيقة أن الطبيعة هى من صنع الله تبارك وتعالى وأنها موقوتة وليست خالدة ، وأن الله هو الذى يديرها ويشملها ويملكها ، وأن هذه السنن والقوانين التى تكشفت للعلم فى الزمن الأخير هى من صنع الله وهى قائمة منذ أول الخلق وان كانت قد عرفت أخيراً ، وليس للعلم فى العصر الحديث من فضـــل إلا أن أذن الله أن تكشفت على يديه ، ولكن العلم تجاهل هذا كله وحجبه واستعلى ، وحين انتقلت هذه العلوم إلى بلاد الإسلام نقلت بهذه الصورة المتجهمة المتجاهلة لإرادة الله تبارك وتعالى ، وكان من الحق على المسلمين أن يقدموا مفهوم العلم فى صورة صحيحة وأن يصححوا فهم الشباب المسلم المتعلم للطبيعة وقوانينها فيعرف أنها من صنع الله وقد علمها تبارك وتعالى الانسان وأن على الإنسان أن يعترف بفضل الله عليه ويعرف أنها سنن سائرة منذ ملايين السنين ، وكل ماهنالك أن الإنسان أعطى فهمها فى العصور الأخيرة .

(٣)

من هذا المدخل القاصر الذى اقتحمه العلم الغربى تشكلت مجموعة من المفاهيم والنظريات مزقت مفهوم المعرفة الجامع بين النفس والجسم والعقل والروح والدنيا والآخرة وأعلت شأن الواقع والظاهر والمحسوس ، فى الطبيعة والإنسان وتجاهلت عوالم الروح والغيب والوحى والدين فتنكرت للدين بصفة عامة وللخالق واعتبرت أن العالم مادى سرمدى خلق نفسه ، وأغضت عن الأخلاقيات والقيم الثوابت وجرت وراء مفهوم التطور المطلق والتطور الإجتماعى ، وأعلت من شأن الصدفة والطبيعة الذاتية ونسبية الأخلاق .



ولم تكن هـــذه النظريات قائمة على أصول فى العلوم جرى تحقيقها بالتجربة وانما قامت على فرضيات لم يتمكن أصحابها من الإلمام بالقدر الكافى من الدليل للقول بها ومضى العلم يشق طريقه بجناح واحد لحقق نتائج خطيرة فى مجال الماديات ولكنه عجز أن يعطى البشرية أشواقها ويعطى الفكر الإنسانى مفهومه الجامع .

لقد سارت أوربا فى الطريق الصحيح عندما اعتنقت المنهج التجريبى الإسلامى ورفضت منطق أرسطو بعد أن رفضه المسلمون أولا وتبين للغرب أن منهج الاستدلال الأرسطى قاصر عن اكتناه أسرار الطبيعة ونواميس الكون ، ولقد كان منطق أرسطو قاصر من وجهة النظر الإسلامية قبل ذلك لعجزه عن استيعاب أسرار الذات الإلهية وتفسير قدراتها وهو فضلا عن ذلك تعبير عن وجود يونانى قائم على العبودية والوثنية معاً .

يقول بريفولت فى كتابه بناء الإنسانية : إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربى والعلوم العربية فى مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه فى الأندلس وليس لروجر بيكون ولا لسميه فرنسيس بيكون الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما فضل فى ابتكار « المنهج التجريبى » فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلامى إلى أوربا المسيحية ولم يمل من التصريح قط بأن يعلم معاصريه أن اللغة العربية وعلوم العربية هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق ، وقد انتشر المنهج العربى التجريبى فى أوربا فى عصر بيكون وأكب الناس على تحصيله » . وقد بدأ العلم فى أوربا بترجمة علوم العرب فى الطب والطبيعة والفلك والكيمياء والصيدلة والملاحة وفى الجغرافيا وعلوم البحار والصوت والضوء والأرقام والحساب والجبر والمراصد.

ومع ذلك الاعتراف الصريح الواضح فإن كتاباً يكتبون بالعربية يتناولون بيكون من نواحى كثيرة ولكنهم يتعمدون أن ينكروا هذه الرابطة بينه وبين العلم الإسلامى .

والمعروف بعد ذلك جد يسير ، فان الغرب لم يلبث أن فرغ العلم من تكامله الروحي والمادي ولا نقول من طابعه الاسلامي ، كما فرغ الغرب العلم من أخلاقياته وعالميته الانسانية وتحركه في إطار الفكرة الربانية الأصيلة ، وسرعان ما حصره في بلاده واستعلى به جنسا وسلطانا ونفوذا وجعله أداة سيطرة واذلال للشعوب التي قدمته أولا إلى الغرب والتي لم تعد تملك أسرار تقدمه وتطوراته .

وكان للخلاف الذي وقع بين رجال العلم ورجال الدين أثره في نظرة رجال العلم إلى الدين نفسه ، لقد نقل العلم الغربي من الرهبنة في الطريق الأيمن إلى غاية اللذات واللذات المفتوحة والمقتحمة في الجانب الآخر ، دون توسط ، نقل العلم في إطاره الجديد المحرر من الدين والأخلاق ، المتدافع وراء المتعة واهواء النفس ، نقل أوربا من عالم الزهد والرهبنة إلى عالم العنف والقوة والتسلط .

لقد أخذ الغرب خيوط العلم الإسلامي ثم شكلوها على مفهومهم الاجتماعي . وصنعوا منها حضارة تعلي من شأن الرغبات النفسية وتستعلي على الشعوب بالاستعمار وتحرر الغرب من مفهوم الدين في علوم الطبيعة فأنكر الخالق وتصور أن الطبيعة تصنع نفسها وانها أزلية ، وانكر الأخلاق في توجيه منتجات العلم فصرفها إلى الانحلال والفساد وخلق عالم الاستهلاك الصاخب المتدافع ونما دور السينما والرقص والتحلل الخلقي ، وسيطر النفوذ الربوي والاتجاه المادي ، ثم ألقت الفلسفة المادية بظلها على الحضارة والعلم والمجتمع بنظريات التطور المطلق ونسبية الأخلاق والقول بأن الدين نظام اجتماعي بشري قابل للتطور والتغيير مع الظروف والبيئات وأن الجنس الأبيض سيد الأجناس وأنه لامانع من السيطرة على الأمم المتخلفة بحجة تمدينها واستغلال خيراتها .

وأصبحت المادية قاعدة النظامين الرأسمالى والماركسى وعلى أساس القاعدة المادية يقوم فكرهما ويتقارب .

(٤)

العلم : ظواهر واحتمالات

كانت ظاهرة استعلاء العلم بالقدرة على تفسير الحياة من عوامل الغرور التى خدعت بها أجيالا من الناس ، حين ادعى العلم قدرته على أن يقدم للبشرية نظاما يخلصها من أزماتها ، حتى تصور بخنر وتصور ريغان أن العلم منفصلا عن كل القيم قادر على أن يحل محل الدين وأن يسعد البشرية .

وقد تبين فساد هذه النظرية تماما وتراجع العلم عن دعواه الباطلة .

وتناهى الأمر بأن أجمع العلماء فى شبه رأى موحد على أن العلم لا يفسر ظواهر الأشياء ويعللها ولكنه يصفها ويقررها ومهمة العلم فى تقديرهم قاصرة على وصف الظواهر ، وقد كان العلم فى أذهان الأوائل يراد به تفسير الوجود . كان العلماء فى أول النهضة يهتمون بمعرفة (لماذا) ولكنهم أخذوا يتخلون عن هذا الاهتمام بعد أن تبين لهم عبث هذه المحاولات وعقم نتائجها، لقد تراجع العلم وترك للفلسفة مهمة بحث العلل النهائية للوجود بعد أن عجز العلم فى هذا المضمار ولم يسفر بحثه عن شىء (ومن المعروف أن الفلسفة قد عجزت أيضا لأنها صدرت من المفهوم المادى المطلق) .

فالعلم لا يفسر شيئا وإنما هو يربط وينسق ويلاحظ ملاحظة منهجية وبالتالى يصف ويقرر وليس هذا فهما للأشياء ولكنه تعرف عليها . ويقرر العلماء أن المعرفة تقتصر على ظواهر الطبيعة وأعمال البشر وعلاقاتهم التى يمكن استخدام المشاهدة والتجربة لاكتشاف قوانينها والعلم يعرف اليوم بأن العقل البشرى لا يستطيع أن يدرك شيئا إلا عن طريق الحواس ولذلك

فكل ما يقع وراء الحس والعقل لا يمكن للعلم أن يبحث فيه أو يعرف عنه شيئا كما يقرر أن حقائق العلم ليست مطلقة ولا ابديه بل هى حقائق نسبيه، وأن البحث العلمى مجال مفتوح بين الإنسان والطبيعة فكلما ازداد الإنسان معرفة لقوانين الطبيعة ازدادت سيطرته عليها . وأن هذه الحقائق كانت موجودة منذ خلق الله الدنيا ولكن الإنسان لم يعرفها إلا أخيراً ولم يعرف منها إلا جانباً يسيرا [وما أوتيتم من العلم إلا قليلا] .

ومازال العلماء يتساءلون : هل يستطيع العلم أن يدرك الحقيقة ، لقد قطع العلم أشواطا بعيدة خلال ثلاثمائة سنة فهل استطاع التوصل إلى الحقيقة ، ومع أن العلم وصل إلى تقديم أفظع وسائل الفتك والتدمير فإنه مازال عاجزا عن حل المشكلة الكبرى المتمثلة فى أصل الكون ونهايته وطبيعة المادة ومنشأ الحياة وخلود الروح .

(٥)

وقد كان العلم فى غطرسته واستعلائه يتصور أن كل ما يقدمه هو حقائق ولكن الأمر لم يلبث أن تكشف عن غير ذلك وأن كل ما قدمه العلم إنما هو احتمالات وأن مجال الخطأ هو تسرع العلماء فى طرح مسلمات لأشياء لم تكتمل بين أيديهم كما فعل دارون حين تحدث عن أصل واحد للمخلوقات قبل أن يصل إلى الحلقة المفقودة التى اكتشفت فى السنوات الأخيرة وبعد مائة عام من نظرية دارون تبين أن الإنسان خلق مستقل عن الحيوان .

ويقول مارتن ستانلى كونجدن: أن نتائج العلوم تبدأ بالاحتمالات وتنتهى بالاحتمالات وليس باليقين ونتائج العلوم بذلك تجريبية عرضة للأخطاء فى القياس والمقارنات ونتائجها اجتهادية وقابلة للتعديل بالاضافة والحذف وليست نهائية ولقد اضطر العلم منذ أجيال أن يترك البحث فى (كنه)

الأشياء بعد أن تبين أنه لاسبيل إلى معرفة كنه المغيب عن الحواس واكتفى بدراسة ظواهرها ».

ولا ريب أن قيام العلم على مفهوم المعرفة الجزئى الانشطارى الذى اعتمد المادة وانكر الروح والوحى والدين والمعنويات قد سد أمامه الطريق إلى الفهم الصحيح ومرهان ما كشف عن عجزه عن مفهوم كنه الأشياء .

ويقول رصل تشارلز ارنست : أن كل الجهود التى بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين ومع ذلك فان من ينكر وجود الله لايستطيع أن يقم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدى إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التى شاهدناها فى الخلايا الحية .

وهكذا نجد أن العلماء يقررون اليوم أن العلم البشرى يقوم على الاحتمالات لا يقين فيها مهما أوتى من دقة التجربة ودقة الآلات يقول ماريت ستانلى أن العلوم حقائق مخبرية ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الإنسان وأوهامه ونتائج العلوم مقصورة على الميادين الكمية فى الوصف والتنبؤ ، وهى تبدأ بالاحتمالات كذلك وليس باليقين ونتائج العلوم بذلك تقريبية وعرضة للأخطاء المحتملة فى القياس والمقارنات ونتائجها اجتهادية وقابلة للتعديل بالاضافة والحذف وليست نهائية » .

وهكذا نجد أن العلم قد اضطر أن يترك البحث فى كنه الأشياء لأنه علم أنه لاسبيل إلى معرفة هذا الكنه المغيب عن الحواس واكتفى بدراسة الظواهر .

(٦)

نعم لقد هوت مادية العلم كلية بتطور البحث العلمى ودخوله فى مرحلة جديدة ، يقول العلامة هالدين فى كتابه (المادية) : ماتت النظرية المادية



بالنظرية القائلة بأن الذرات مركبة من الكهرباء وبروتونات موجبة والكترونات سالبة، وطفت عليها نظرية الكوانتوم وأن الكهربائية تجيء شحناتها من المجهول وتذهب إلى المجهول . ومن هنا لم يستطيع المذهب المادى الإجابة على هذا السؤال .

قال هالدين معلقا : أن الحقيقة التى طفق الإنسان يبحث عنها دهوراً مديدة هى روحانية فى وجودها والروح لا يدركها العقل .

وتحد آخر واجه العلم هو غلبة تيار «التكنيك»، والتكنيك هو المنطلق الآلى للعلوم ، هذا التحدى هو أن يصبح التكنيك سيد العلم وسيد العقل البشرى ويكون الإنسان عبده الخاضع له بدلا من أن يكون سيده المسيطر عليه ويقول الباحثون : أن العلم قد انحرف سبيله فقد أصبح سيد الإنسان بعد أن كان الإنسان صانعه فكما أن جسم الإنسان يفقد خصائصه كإنسان حى ، اذا فقد الحياة النابعة من عقلة وقلبه ، كذلك « التكنيك » يفقد خصائصه المنتجة إذا أضحى هو سيد العلم بدلا من أن يكون العلم سيده.

(٧)

الحتميات :

ولد العلم التجريبى فى الغرب مناهضا للدين ومعاديا له منذ البداية ،فقد وجد العلم التجريبى معارضة من رجال الكنيسة والاكليروس وتفسيرات الدين ، دفعته إلى الانفصال عن مفهوم الدين كلية وقد غلبت عليه طبيعة المفهوم اليونانى الوثنى بالرغم من إسلامية مادة العلم نفسه التى بدأ فى تشكيلها وصياغتها . ولقد كانت وجهته إلى دفع العلم إلى طريق مجهول اعتمادا على مجموعة من الأساطير التى خلقتها الفلسفة المادية اليونانية وأسطورة برمثيوس التى تقول أنه سرق شعلة المعرفة واعطاها للانسان من غير أمر الله واذنه مع أن القرآن يزيف هذه الدعوى ويؤكد أن الله علم آدم الأسماء كلها أى أصول العلوم والمعارف جميعا ومنه أن الله تبارك وتعالى علم بالقلم وعلم الانسان ما لم يعلم .

لقد قام العلم الغربى على كل ما وسائله الحواس والاستنباط العقلى وهدفه استثمار البيئة وطلب القوة والغلبة والسيطرة، فهو العلم الوضعى فقط، وليس العلم بمفهومه الجامع وهذا أول التمزق، وأنه منذ الخطوة الأولى انفصل العلم المادى عن العلم المعنوى وانشطرت المادية عن الروحية وبحوث ديكارت هى التى وضعت أساس هذا الانشطار.

وقد تبين فى الأخير للعلماء فساد هذا المنهج الذى رسمه ديكارت وهم ينسبون إليه اليوم تلك الآثار الخطيرة التى ترتبت على تمزيق اديم المعرفة المتكامل.

كذلك فقد اتخذ العلم الغربى طريقه منفصلا عن هداية الله والدين والوحى، ففرق بين العلم والعمل، فأحدث ذلك الغربة الفكرية والإحساس بالضياع النفسى الذى يمر به الإنسان المعاصر، كذلك فرق بين العلم والخلق هذا الانفصال الذى أدى إلى استشراء هذه المدنية العلمانية من فن وعمارة وأزياء، وتقاليد وسينما ومسرح وحرية جنسية وبارات وملاه وعلب ليل وموسيقى الجاز الصاخبة ورسوم السوريالزم.

فقد توجهت كل معطيات العلم وثمراته إلى تغذية هذا الانحراف الاجتماعى الخطير من ناحية، كما توجهت إلى تغذية أسباب الإرهاب والدمار والهلاك للبشرية كلها، بإنشاء القنابل الذرية والهدروجينية.

وبذلك اختلف مفهوم العلم فى قبضة الغرب عن مفهوم الإسلام.

ولقد كان للفلسفة المادية التى أنتجها العلم أبعد الأثر فى تأريث هذه المحاذير التى كشف عنها الباحثون حين أعلنوا عن فساد النظرية التى قدمها العلم فى تفسير الحياة، وقالوا إن أخطر ما تورط فيه العلم هو إعلاء الجانب

المادى وحده ، هذا الجانب الذى نما واتسع وأصبح عملاقاً ، وهو بمثابة جسم الحضارة ، بينما تباطأ نمو عقل الحضارة وروحها وضعف وحجب عن أسباب الحياة والنماء ، حتى اختل التوازن بين قواها الفاعلة وقواها المنفعلة ، وأصبح اختلال التوازن هذا ظاهرة لا مفر منها .

ومنذ أخذ العلماء يكتشفون النواميس التى تسير الكون ، فإنهم أخذوا ينسبونها إلى مصدر وهمى هو « الطبيعة » كقضية مسلمة لا يناقشها العقل ، لقد استعلى الإنسان بعلمه عندما عرف خواص المادة وعندما اخترع الآلة التى تقوم بالإنتاج ، ولأنه لم يلتمس هداه من صانع الكون ، الذى وجهه إلى فهم القوانين ، فإنه شكل فكره العلمى من مجموعة من المفاهيم الباطلة : عبادة الطبيعة واحتقار الإنسان، إسقاط مالا يدركه الحس، عبادة العقل وتقديسه.

ومن ثم سقط فى أخطر مصيدة نصبت له : وهى الصراع والحتميات فقد تصور أن العلاقة بين الإنسان والطبيعة هى علاقة صراع وإن البقاء فيها للأصلح ، وإن من شأن القوى أن يقضى على الضعيف ويبيده ، وقد ردد هذا المفهوم دارون ثم اتسعت دائرته من بعد وقال به نيتشه وغيره واتخذه الغرب مبرراً للاستعمار والسيطرة على الأمم الضعيفة ثم تبين من بعد فساد نظرية الصراع بين الإنسان والطبيعة وتبين أن العلاقات كلها علاقات تعاون وتكامل .

وكانت الحتميات من أخطر ما قال به العلم الحديث : أو قالت به فلسفة العلم ، هذه الحتميات التى أعلن الفلاسفة أنها مفروضة على خط سير البشرية ، وهى حتميات اقتصادية واجتماعية وتاريخية يراد بها إلغاء إرادة الإنسان وبإلغاء إرادته تلغى مسئوليته وجزاءه وحسابه عن عمله فى الحياة الدنيا ، هذه الحتميات هى قمة التفسير المادى للحياة والمجتمع والحضارة التى ترمى إلى إهدار إرادة الإنسان بهدف إهدار مسئوليته وجزاءه وتصويره على أنه مشاهد فقط .

وحتمية قوانين الطبيعة تستهدف إنكار قدرة الله على المعجزات ، فهى تصور الأمور ، وكأن العالم يدور فى نظام ثابت لا يتغير ، ليس فى حاجة إلى من يديره ، ولذلك فإن أخطر ما يدعو إليه العلم المادى القول بأن هناك نواميس ثابتة الكون ، نعم هناك نواميس بإرادة الله ، ولكن هناك إرادة الله التى تخرق هذه القوانين والتى تصنع المعجزات دون أن تكون هذه المعجزات خاضعة لأى تقدير أو حساب مادى .

ومن الحتمية القول بالصدفة ، وإن الوجود كله نشأ نشوءاً ذاتياً بما فى ذلك الحياة ، أو القول بأن الكون موجود بلا غاية وإن الإنسان موجود بلا هدف .

وهكذا سار العلم خطوات واسعة فى إنكار المصدر الأول : الذى هو قدرة الله الصانع الخالق مدبر الكون ومحركه ساعة بعد ساعة ولحظة بعد لحظة .

وهكذا أنتج هذا التقدم المادى فى مجال العلم فساداً فى التصور ، فقد ارتبطت لحظة إعطاء الله للبشرية أسرار الطبيعة وبعض مفاتيحها وقوانينها ، إنكار الإنسان المصدر الذى أعطاه إياها ، والادعاء بأن العلم هو من قدرة الإنسان وذكائه وعمله ، وإن الإنسان وحده هو الذى يصنع ، مع إغفال قدرة الله وتدبيره للكون والحياة والإنسان .

لقد كان إنكار الخالق هو أخطر ما رد به العلم الغربى على معطيات الله تبارك وتعالى للعقل الإنسانى .

وكانت هذه الحتميات هى قمة المعارضة العلمية الغربية لمشيئة الله المطلقة التى لا يمكن أن يحدها قيد ، وكانت هى بمثابة العجز عن فهم حقيقة إرادة الله القادرة .



إن سنة الله تتمثل فى الثبات ، ولكن الخالق لا يعجزه شىء ، من التغيير الطارىء ، أما العلم الحديث فينكر هذا التغيير ، أما المسلم فانه يؤمن بالمعجزة الإلهية : التى لا تمنع من استمرار القوانين الثانية ، والمعجزة مخالفة للسنة الظاهرة الثانية ، ولكنها جزء من سنة الله .

ولقد كان المسلمون يطلقون على هذا العلم : علم (سنن الله فى الكون) فغير الأوربيون هذا الإسم وأطلقوا عبارة (قوانين الطبيعة) وفى مفهوم الإسلام أن سنة الله تقوم على القانون الثابت وعلى المعجزة التى هى جزء من سنة الله ، وقد قام المنهج التجريبى الإسلامى فى ظلال العقيدة وفى إطار الإيمان بالمعجزة ، فلا تعارض بين الإيمان بحدوث المعجزة والإيمان بثبوت سنة الله فى الكون التى يترتب عليها إمكان قيام البحث العلمى[1] .

ولقد ظلت فكرة الحتمية ظاهرة فى مفاهيم العلم الحديث على أنها حقيقة ثابتة حتى نقضتها تطورات العلم نفسه ، وكشفت عن فسادها . لقد كان علماء القرن التاسع عشر وما قبله يعتقدون بالحتمية المطلقة ، وكانوا يفسرون الكون تفسيراً ميكانيكياً بحتاً ، وكان أمامهم فى هذا (لابلاس) يقول أننا إذا عرفنا موضع وسرعة جسم معين أصبح من السهل التنبؤ بحركته فى المستقبل ، وكان يقول فى غرور : لو استطاع عقل ما أن يعرف فى لحظة ما جميع القوى التى تحرك الطبيعة وموضع كل كائن من الكائنات بالنسبة الآخر ، ثم إذا كان هذا العقل قادراً على أن يخضع هذه الأشياء كلها : إذن لاستطاع أن يعبر بصيغة واحدة عن أكبر الأجسام فى الكون وعن حركات أخف الذرات وزناً ، وإذن لما بقى شىء

---

(١) محمد قطب : جاهلية القرن العشرين .

مجهولا بالنسبة إلى العقل ، ولأصبح المستقبل والماضى ماثلين أمام عينيه كالحاضر تماماً .

يقول الباحثون إن هذا الأمل لم يتحقق ، وهذا التنبؤ بالمستقبل يكاد يكون من المستحيل ، لأن هناك مجالات لا تتحقق فيها نظرية لابلاس فى التنبوء بالمستقبل ، وكذلك الحال فى انفلاق الذرة فنجد فى تبددها ثلاثة أشعة يسير أحدها فى مسار نحو اليمين أو نحو الشمال فى الفضاء ، وقد لاحظ العلماء أن اتجاه الشعاع اتجاهاً معيناً لا يخضع لسبب ولا تحكمه ضرورة فقد يذهب يميناً كما يذهب شمالا فهو حر .

ما الذى تدل عليه هذه الظواهر التى ذكرناها ، وما الذى نستنتجه منها :

الواقع إن مثل هذه الحالات (كما يقول أحمد حسن راشد) لا يمكن معرفة ماذا سيحدث للجسم وكذلك فى ظواهر الطبيعة وفى اتجاه الذرة المنطلق وإنما الذى يمكن عمله هو تنبؤات إحصائية فلن يمكننا معرفة ما إذا كانت الجسيمات ستصعد أم ستنزل وما إذا كانت ستذهب بعيداً أم ستكون أبعد فى الثانية أو الدقيقة التالية ، لقد وجدت استحالة تامة لعملية التنبؤ ، أو بطريقة غير مباشرة . لهذا نرى كيف انهار التحديد والتنبؤ الذى قالت به الميكانيكا الكلاسيكية على ضوء هذه الحقائق .

وهذا ما فعلته « النسبية » أيضاً التى تخلصت من فكرة المكان الواحد والزمان الواحد وقالت بفكرة المكان المندمج فى الزمان وأنهما حقيقة واحدة واستطاع أنشتين بهذه النظرية إصلاح نيوتن فى معادلاته الرياضية .

وثمت مظهر آخر عجزت فيه (فكرة الحتمية) عن مسايرة الركب ، وهو مجال الضوء فقد كان العلماء فى القرن السابع عشر ونيوتن ينظرون إلى الضوء على أنه يسير فى جسيمات ثم أكدت التجارب بعد ذلك أنه يجب أن يكون عبارة عن موجات . وصدقت هذه الفكرة لأنها استطاعت تفسير

حيود الضوء الذى عجزت عن تفسيره النظرية القديمة ، ولكن جاءت بعد ذلك (الظاهرة الكهرضوئية) التى عرفها أنشتين مفترضاً أن الضوء مكون من حزم ضوئية منفصلة عبارة عن حبيبات من الطاقة أسماها فوتونات أو كات وهذا ماعرف باسم "النظرية الكمية التى وضع أساسها ماكس بلانك لقد حاول العلماء قبله أن يوجدوا علاقة بين الطاقة المشعة ودرجة الحرارة وطول الموجة وظلت محاولاتهم لاتجدى حتى وفق (بلانك) إلى معادلة رياضية ، وذلك باتجاهه إلى فرض عدم الاتصال .

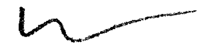
والجديد فى نظريته أن الطاقة المشعة لاتنبعث عن ينبوع متصل بل عن وحدات متقطعة هى الكمات .

وهكذا نجد أن نظرية « الحتمية » قد نسفت تماماً وقام بديلا منها مفهوم « اللاحتمية » .

فقد كانت الحتمية معارضة للفطرة وللعالم ولقدرة الله ، وقد انتقلت من العلم التجريبى إلى العلوم الإنسانيـــة فأفسدت مفاهيم المجتمع والنفس والأخلاق .

لقد ظهرت نظريات ومبادىء اهتدى إليها (براون وهايزنبرج وبلانك) زلزلت الاعتقاد فى مبدأ الحتمية ، وكشفت عن وجود صلة قوية بين المادة والكهرباء والطاقة التى كان ينظر إليها علماء القرنين الماضيين على أنها منفصلة عن بعضها .

ومع هذا الاعتراف الواضح من العلماء التجريبيين بسقوط الحتمية وظهور اللاحتمية فإن الفلاسفة وخاصة فلاسفة المنطق الوضعى والمادية مازالوا مصرين على مفهومهم الباطل المبطل ، وهم الذين يدعون أن مفهومهم الفلسفى مستمد من العلم ، لايريدون أن يقبلوا ماجاء به العلم ولايريدون أن يعتنقوا ما وصل إليه العلم مماينقض نظريتهم ويكشف فسادها .



أن هذا الكشف الذى وصل إليه العلم يبرز قدرة الله وإرادته العليا فانه يحطم مفهوم التنبؤ بالمستقبل الذى جرى عليه العلماء وجرى عليه الفلاسفة الماديون .

لقد تبين استحالة هذا التنبؤ ، كما فتح باب من الدهشة أمام العلم حين تكشفت له حقيقة حركة الضوء والعملية التى تتبعها الذرة فى إشعاع الضوء وفى نشره فى الفضاء فهى ليست مقيدة بقانون مادى .

أن النتيجة التى نصل إليها : هى الانتفاء النهائى لمبدأ الحتمية وانتقال العلم كله إلى مفهوم الاحتمال الذى يعد الآن أكبر ظواهر العلم .

يقول بروجلى : نرى الفيزياء الحديثة لاتقدم لنا غير قوانين احتمالية يمكن أن يعبر عنها فى صيغ رقيقة ولكنها مع ذلك ليست إلا قوانين احتمالية فقط .

وقال علماء التجريد - وهم فى طريق التعرف إلى الطريق الصحيح - أن العلم وقضاياه معرضة دائماً لشىء من الخطأ ولذا فصدقها احتمال بعكس الرياضة فالعلم لايستطيع تحديد الكهرب المعين فى الفضاء بل تعين (الوضع المحتمل) للكهرب المعين فقط ، وهكذا نجد أن القوانين الجديدة الإحصائية والاجتماعية إلى السواء تصر على نبذ فكرة (الحتمية المطلقة) والأخذ بفكرة تتمشى مع التصورات الحديثة للعلوم الطبيعية وهى فكرة ومبدأ [اللاحتمية] كانوا يقولون : لولا الحتمية لما تقدمت العلوم واليوم يقولون : لولا اللاحتمية لما تقدمت العلوم ، وأن هذه النظريات والآراء التى يقدمها العلم ليست المرحلة النهائية فى العلم وإنما هى مرحلة مؤقتة فقط .

ويأتى خلاصة ذلك كله فى قول (دبراك واديتجون) أنه لايعرف قانون حتمى فى الطبيعة ، وأن قانون اللاحتمية هو الذى يصدق على التفاصيل والعناصر التى تتكون فيها المركبات والأجسام .



(٨)

وكما تصدعت نظرية الحتمية تصدعت نظرية تولد الحياة الذاتى من الجماد التى سادت فترة طويلة . وتصدعت نظرية الصدفة ، وتصدعت نظرية الخلية الواحدة التى نشأت منها جميع الكائنات . كانت كل هذه فروض ومحاولات لمواجهة الغموض الذى أحاط بالباحثين وحال دون الوصول إلى الحقيقة . ولكن هذه الفروض التى طرحت تسربت إلى الفلسفة كأنها حقائق ومسلمات فكان لها أثرها العميق على العقائد والنفوس، فقد أنشأت ذلك التيار الإلحادى المعطل الذى أنكر وجود الخالق صانع الطبيعة وموجهها .

لقد وصل العلم إلى أن كل خلية حية تتولد انطلاقاً من خلية سابقة لها فى الوجود وأن جسم الكائن الحى ليس إلا مجموعة خلايا حية ، ولكن بقى السؤال المحير : كيف تولدت الخلية الأولى على سطح كوكبنا الأرضى ومتى تولدت وأين تولدت ، وبقى العلم فى حيرة حين قال بأن هناك حلقات مفقودة ولكنه كان يأتى بفروض حين قال أن جميع الكائنات الحية التى تظهر بملايين الصيغ والأشكال على وجه الأرض تحدرت من خلية واحدة، ولم يلبث العلم إن وجد فى الحفريات المتعددة فساد هذه النظرية وأن الانسان كان وليد خلية خاصة وأنه جنس مستقل عن الحيوان وعن القردة وذلك بعد أن عاشت فكرة دارون أكثر من مائة عام تؤثر فى النفوس والعقول .

كذلك فقد تبين فساد [نظرية الصدفة] التى قال بها بعض العلماء الماديين حين قالوا بأن نشوء الحياة على الأرض كان مجرد صدفة حدثت مرة واحدة على ظهر الأرض فكيف يمكن أن يكون هذا النظام الدقيق صدفة ولاريب أن القول بالمصادفة هو قول غاية فى الإعنات والفساد فى كون تديره قوانين محكمة منضبطة وكل حركة فيه بمقدار وكل عنصر بمقدار ولاريب أن القول



بالحتمية والقول بالمصادفة إنما يستهدف تحطيم مسئولية الانسان والتزامه وجزائه . وإنها تستهدف فتح الباب إلى التحلل من جميع القيم والمسئوليات.

وبالرغم من هذه التصدعات التى ظهرت فى مجال العلم فان كتب العلوم مازال مبقية على تلك الفروض التى تثير الشبهات والشكوك حول مايؤمن به المسلمون .

وما تزال تلقى هذه النظريات على أنها حقائق وعلوم بينما هى ظنون وفروض .

ومازال المذاهب المادية التى تدرس فى المدارس والجامعات فى البلاد العربية الاسلامية تلقى فى روع الشباب المسلم شبهات خطيرة :

(أولا) إنكار إسناد الخلق إلى الله ، وتصور أن الانسان هو المخترع والمبتكر والصانع والمشرع .

(ثانياً) أن الطبيعة هى التى تخلق ، وأنها خلقت النبات بصورة كذا ليتكيف مع ظروف كذا ، وأن الطبيعة خلقت للطيور أجنحة وللأسماك زعانف وللدواب أرجلا .

(ثالثاً) أن المادة تطورت من التراب إلى الانسان بمقتضى القانون الجدلى المودع فيها .

(رابعاً) القول بأن الكون جاء مصادفة وأنه فى البداية كان مادة ثم تطور إلى فكر .

ولقد تطور العلم وتجاوز هذه المفاهيم ولكنها مازال تعلم لشبابنا وتخلق فى النفوس إحساساً خطيراً بالتحرر من المسئولية مايؤدى إلى نبذ التشريع الإلهى .

لقد تجاوز العلم فكرتين خطيرتين الأولى : الأولى المصادفة وثانياً قصة النشوء الذاتى .

فقد تبين العلماء أن النظام الدقيق المتمثل فى دورة الأفلاك كمثل من أمثلة التنظيم الدقيق الذى شمل كل شىء فى الكون لايمكن أن يحدث مصادفة بلا تدبير وأنه مع كل هذه الدقة التى لاتختل فى دورتها ثانية ولاثالثة فى قياس الزمن ولاقيد شبر فى حساب المكان فى بلايين البلايين من السنين التى لايدركها حصر الانسان .

ولكن الفلسفة المادية تركز على المصادفة : لتتخذ منها وسيلة إلى القول بأن الكون قد وجد بلاغاية وأن الانسان لاهدف من وجوده، وذلك فى إطار إنكار الصانع والموجد ، ولقد هدى الدين الحق المسلمين إلى أن خلقهم لم يكن عبثاً وأن الله تبارك وتعالى قد أقام هذا الكون بالحق ، وأن الانســـان مستخلف ومسئول وله رسالة هى إقامة المنهج الربانى فى الأرض وأن الانسان له إرادة حرة وهو مسئول ومحاسب عن عمله وله جزاء أخروى وأن دعوة القرآن إلى الانسان هى أن ينظر ويفكر ويتأمل ويسير فى الأرض ليرى كيف بدأ الله الخلق ، وأن هذا التأمل والنظر من شأنه أن يهديه إلى أن هناك غاية وقصداً وراء هذه المعجزة التى لايحيط بكل دقائقها عقل الانسان .

ولاريب أن فكرة المصادفة واللاغاية قد نشأت من مادية النظرة إلى الكون والحياة والانسان وهى التى أدت إلى القول الباطل بأن الحياة قد نشأت مصادفة بلاتدبير من خالق مدبر ولاحكمة والتى أدت مصادفة إلى خلق الانسان .

ولاريب أن دارون : حين قال أن الحياة تخبط خبط عشواء فى تطورها بما فى ذلك نشأة الانسان وتطور الانسان إنما كان عاجزاً عن الاحاطة

بأسباب الفهم وتعمق التجربة ، وأنه لو ترك هذا إلى أن ينكشف بين أيدى العلماء الدلائل لكان خيراً ، ولكن تسرع دارون أثار هذه العاصفة السوداء فى مجال الفكر البشرى واتخذت منه الصهيونية التلمودية وسيلة إلى تدمير النفس الانسانية والخلق والعقيدة البشرية .

فقد أفادت منه أن تلق فى نفوس الناس أن الحياة لاغاية لها وأنها لعبة وأن وجود الإنسان فى الحياة نوع من العبث ومن هنا جاءت تلك الأزمة الخطيرة التى نبتت قواعدها على أساس آراء دارون وسبنسر وديكارت وغيرهم حين صنعوا الفلسفة المادية فأنكروا وجود الروح والمعنويات والوحى والدين.

ومنها جاءت فكرة الماديين الفاسدة من أن الإنسان كحيوان كغيره ، أو أنه كالدودة الشريطية أو بكتريا الباشلس ، وقد جاءت الأديان لتؤكد كرامة الإنسان واستخلافه فى الأرض ، ولكن دارون هو أول من فتح الباب إلى تصوير الإنسان بأنه حيوان ، ثم جاء فرويد فقال أنه حيوان جنسى ، وجاء ماركس فأعلن أنه حيوان معدة .

وحين أعلنت الفلسفة المادية أن الانسان حيوان فقد عارضت المفهوم الأصيل الجامع ، وكذلك عارضت هذا المفهوم حين ادعت خلود المادة أو بقاء الأرض إلى مالا نهاية .

ومن العجيب أن هذه الفرضيات العلمية ، لاتسقط حين يغير العلم مفهومه ، ذلك أن الفلسفة المادية ماتلبث أن تتلقفها وتجعلها أساساً لنظريتها.

ومن ذلك أن خلفاء دارون لم يلبثوا حتى عارضوا مفهومه عن حيوانية الانسان وفى مقدمتهم جوليان هكسلى الذى أعلن أن للإنسان كيان بيولوجى منفرد وأن دارون تعجل بغير سند علمى فأعلن حيوانية الانسان لأن العلم الذى كان بين يديه أوحى له بالتفسير الحيوانى للانسان ولكن ماقاله دارون

تلقفته القوى التى تدير الفلسفات المادية لهدم الانسان ، فمضت به إلى أبعد الغايات . وأغفلت ما قال هكسلى وتجاهلته . ثم اتخذ هذا الافتراض الباطل أساساً للتفسير المادى للتاريخ وأساساً للتطور المطلق ولتطبيق التطور البيولوجى على المجتمعات ولفرض أسلوب التجريب على مفاهيم النفس والعلوم الانسانية وكل ذلك باطل .

أما قصة النشوء الذاتى فهى من فروض دراون : وهى إنكار صريح لله الخالق وهى جزء من جرأة دارون على العلم دون أن يمتلك بين يديه الأسانيد والدلائل الصحيحة ، ولكن العلم مضى بعد ذلك خطوات وكشف عن زيف فرضية دارون، ولكن هل تراجعت الفلسفة المادية عما تراجع عنه العلم، ذلك مالم يحدث لأن الفلسفة المادية مصرة على تدمير الانسان باتخاذ خيوط وشبهات وفروض من مجال العلم لتحقيق هذا الهدف الخطير .

يقول رسل تشارلز أرنست (أستاذ الأحياء والنبات بجامعة فرانكفورت بألمانيا) ، لقد وضعت نظريات عديدة لكى تفسر الحياة من عالم الجمادات فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة نشأت من البروتوجين أو من الفيروس أو من تجمع بعض الجزئيات البروتينية الكبيرة ، وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التى تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات ولكن الواقع الذى نسلم به هو أن جميع الجهود التى بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة يمكن أن تؤدى إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التى شاهدناها فى الخلايا الحية وللشخص مطلق الحرية فى أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ، فهذا شأنه وحده ولكنه إذ يفعل ذلك إنما يسلم بأمر أشد إعجازاً وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذى خلق الأشياء ودبرها ، أنى أعتقد أن كل خلية من الخلايا

الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها وأن ملايين الملايين الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق ولذلك أومن بوجود الله إيماناً راسخاً » .

وهكذا نجد أن العلم يتراجع عن أخطائه وفرضياته وأن الطريق ينفتح أمامه ، ولكن الخطر هو خطر فلسفة العلم التي ما تزال تصر على تلك النظريات المبطلة والتي تتخذ منها سبيلا إلى تدمير مقومات النفس الانسانية .

الفصل الثانى

الداروينية ونظرية التطور

أولا : ليس الخطر الحقيقى فى نظرية دارون . ولكن الخطر فى محاولة إذاعتها و فرضها على علوم الاجتماع والنفس والأخلاق والدين والأدب ، وذلك هو ما حاولته القوى التلمودية الصهيونية التى اتخذت من النظرية منطلقاً إلى نشر الدعوى المادية وإلى تدمير المجتمعات ، ومنها أخذت فكرة التطور المطلق الذى يعارض طبيعة الحياة ومفهوم الفطرة ومقررات الدين الحق ، ومن الجائز أن يكون دارون كان موقتاً ولكنه لم يلتفت إلى مدى الخطورة من محاولة القول ، بأن الأجناس البشرية من أصل واحد ، وإن الإنسان من أصل حيوانى ، فانه قد فتح باباً خطيراً من الشبهة حمل لواءه رجال الفلسفة من بعد بالدعوة إلى حيوانية الإنسان ، وكان فى ذلك معارضاً لمفهوم الدين الحق الذى أعلن كرامة الإنسان واستخلافه فى الأرض ولقد كان لاتخاذ التطور أسلوباً اجتماعياً أبعد الأثر فى التنكر للقيم الثوابت ومنها العقيدة والشريعة والأخلاق .

تقول بروتوكولات صهيون : إن دارون ليس يهودياً ولكننا عرفنا كيف ننشر آرائه على نطاق واسع وأن نستغلها فى تحطيم [الدين والواقع] إن السر فى دفع نظرية دارون ذلك الدفع القوى هو قيامها على مفهوم مادية الكون ، فقد كان دارون يرى أن العالم وجد صدفة ، ويقول بمادية الكون وهو أول من صور الإنسان على أنه حيوان .

ثانياً : إن دارون لم يفهم العلاقة بين الطبيعة والإنسان ، ولقصور نظرته وقلة أدلته أكبر من شأن التنازع : تنازع البقاء ، وقد حال هذا بينه وبين رؤية التعاون فى الطبيعة ، هذا التعاون بين الحيوان والنبات الذى هو أوسع وأكبر من التنازع ، ويرى العلماء أن دارون أخطأ خطأ فادحاً عند ما زعم أن تنازع البقاء هو كل شىء ، أو يكاد يكون كذلك ، وقد تبين للعلماء أن التعاون فى الطبيعة أكثر من التنازع بل لا يكاد يكون هناك هناك تنازع فى عالم الحيوان بالمعنى البشرى الذى نفهمه لهذه الكلمة .

ثالثاً : فساد نظرية الانتخاب الطبيعى التى جاء بها دارون ، فقد أعلن العلماء فى الأخير أن هذا التفسير الذى تقدمه نظرية التطور والارتقاء ، قد اهتزت أساساته من جذورها ، فقد طالما انتقد علماء الحياة هذه النظرية أما فى هذه المرة فيبدو أن الهجوم كان ساحقاً بحيث انفتح الباب أمام نظرية جديدة تفسر اختلاف أجناس المخلوقات .

لقد تبين فساد نظرية داروين التى قال بها حين قال إن الزرافة حين أعطتها الطبيعة ارتفاع القامة ، فقد أعطتها الأسبقية فى البقاء على بقية أبناء فصيلتها ، فى استطاعتها الحصول على الغذاء من لبالب الشجر ، بينما ظلت الحيوانات الأخرى تقاسى الجوع ، فهلك بعضها واندثر .

ويقول جين روستند عضو الأكاديمية الفرنسية للعلوم وعميد علماء البيولوجيا الفرنسية بعد أن أطلع على مجموعة أبحاث مراجع لعلماء البيولوجيا البارزين ، إن نظرية التطور التقليدية بمعناها الحرفى قد غدت الآن شيئاً ماضياً ، وإنه لا يجوز تفسير التطور بمثل هذه التعبيرات السطحية التافهة ، كاصطفاء الطبيعة للجنس الأصلح لمجرد أن علماء البيولوجيا قـــد أخفقوا

حتى الوقت الحاضر فى إثبات ما إذا كان بالمستطاع التأثير على تغير الأجناس أو التحكم به أو خلقه عن طريق العملية نفسها .

وإذا كانت الزرافة ذات العنق الذى يبلغ طولها ثمانية أقدام هى نتاج الاصطفاء الطبيعى ، فكيف يكون الحال مع الخروف الذى لا يزيد طول رقبته عن بضع بوصات ، أليست الزرافة والنعجة بنات عم تماماً ثم تكادان تكونان أختين فى المملكة الحيوانية ، فقد تولد كلاهما من أصل واحد ، فكيف يمكن تفسير بقاء نبتى عم كل منهما أصلح للبقاء من الأخرى إحداهما بسبب طول عنقها والأخرى بسبب قصر ذلك العنق .

كيف يمكن تفسير مسألة قرونها ، يقول إن القرون نمت بشكل عفوى ، وحينما ثبتت فاعليتها للحيوان فى صراعه من أجـــل الحياة ، أخذت الطبيعة تصطفى الحيوانات ذات القرون وتفضلها على غيرها ، التى جعلت تنقص تدريجياً ، ولكن هل هذا هو الواقع ، إن هناك خراف قرعان (من غير قرون تنفس عدد الخروف القرناء تقريباً ، فأيهما أصلح للبقاء) .

رابعاً : راجع العلماء مفهوم التطور المطلق الذى أضفى على نظرية التطور فأثبتوا أن حقائق الأشـــياء ثابتة لا تتغير ، وإنما الذى يتغير هو الصور فقط ، فنزعة الطعام لا تزال ثابتة ، وإنما الذى تغير هو صور الطعام ، وكذلك نزعة اللباس والقتال واتخاذ السكن .

وبرهنوا على أن التطور ليس قانوناً أخلاقياً وليس كل طور أفضل من الطور الذى سبقه بأن التطور قانون اجتماعى يتحرك فى إطار الثوابت ولا يقتضى مطلقاً تفضيل الطور الأخير على الأطوار السابقة ، والتطور غير التطوير والتطور ليس كله تقدماً والجديد ليس الأصلح دوماً .



وهم بذلك قد زيفوا زعم سبنسر ، بأن التطور الاجتماعى تطور حتمى لا شعورى .

خامساً : كشف الباحثون أن الدارونية قد استغلت فى محيط السياسة مما أدى إلى خلق جو مضطرب أطلت منه مذاهب العبقرية ، فقد كان قول دارون بأن العناصر الضعيفة يجب أن تموت أو تستأصل ، قد استغلته حركة الاستعمار العالمى كنظرية لتطبيقها على البلاد المحتلة .

سادساً : اتخذت نظرية التولد الذاتى (قال بها دارون ولامارك وأرنست هيكل) منطلقاً إلى الإلحاد ، وجعلها البعض سنداً فى إنكار العقيدة الدينية واتخذت منها فلسفة لنفى الخالق ، وإعطاء المادة صفة القادر على كل شىء ، ومن ثم دعا هيكل إلى تألية الطبيعة وإنكار وجود الله تعالى وقال بوحدة الوجود .

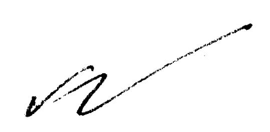
سابعاً : اتخذت فكرة التطور وسيلة القضاء على الأديان والقوانين وذاتية الأمم باعتبار أن كل شىء بدأ ناقصاً شائها يثير السخرية والاحتقار ثم تطور فلا قداسة إذن لدين ولا لوطنية ولا قانون ولا فن ولا لمقدس من المقدسات ، وظهر كأنما أخرجت النظرية لرجال السياسة وعلماء الاجتماع ليقتنعوا بها أكثر مما أخرجت لعلماء الأحياء ، فقد تركت آثار الصراع من أجل البقاء فى أوساط السياسة والحرب ، وكان لمبدأ بقاء الأصلح أثره فى مخططات الاستعمار وإبادة الأجناس المغلوبة على أمرها .

وظهرت من خلال ذلك نظرية القوة والتمييز العنصرى والشعوب المختارة كما صيغت نظرية القوة عند نيتشة ، ومن ذهب مذهبه من علماء الجرمان وبها انتفع دعاة الارستقراطية فوجدوا فيها سلاحهم فأعلنوا أنفسهم بأنهم

الممتازون والمختارون الذين ورثوا مزايا الأجداد سادة البشر ومالكي العروش وصانعي التاريخ .

وتلقفها معلنو الحرب على الأديان فأخذوا يضربون بها في جدار الدين وإعلاء العلم .

ثامناً : إن التطور قانون اجتماعي وليس قانوناً أخلاقياً ويتحرك في دائرة الثوابت ولكنه لا يقتضي مطلقاً تفضيل الطـــور الأخير على الطور السابق له فليس كل طور أفضل من الطور الذي سبقه ، لأن التطور في الحياة قد يكون ارتقاءاً وقد يكون ترديا وانتكاساً .



الفصل الثالث

سقوط نظرية دارون

تفترض نظرية التطور وصاحبها دارون أن جميع الكائنات الحية التى كانت تعيش على الأرض قد نشأت من أصل واحد أو بضعة أصول وأن الثغرات المختلفة التى حدثت لها قد جعلتها تتحول من كائنات بسيطة التركيب إلى كائنات أخرى أكثر تعقيداً وقد قال بذلك ماييه ولامارك واتيين جوفراسان وقد بدت منذ اللحظة الأولى اعتراضات ثلاثة على هذه الفرضية :

أولا : عدم مشاهدة أى ارتقاء من أى نوع كان فى الأحياء الأرضية منذ عهد ألوف عديدة من السنين .

ثانياً : عدم وجود الصور المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب التسلسل كأن يوجد مثلا حيوان أرقى من القرد رتبة واحدة وأدنى من الانسان رتبة واحدة .

ثالثاً : طول الزمان اللازم لحصول الترقى بين الأحياء .

ولم تلبث النظرية أن اهتزت حتى أن البعض أعلن موتها ويرجع ذلك إلى سببين هامين :

١ — أن الداروينية كانت نظرية بحتة تتخذ الانتخاب الطبيعى لتفسير أية ظاهرة تطورية من غير حاجة إلى دليل .

٢ – أن علم الوراثة كان قد اكتشف حينذاك أن التغير الفجائى أو الطفرة حقيقة وأن التغيير الوراثى يسير بقفزات وأحياناً بقفزات واسعة وأنه أى التغير ليس تدريجياً كما يقول دارون .

ووقف علماء كثيرون ومنهم دى فرتز موقف المتحدى حيال مبدأ الانتخاب الطبيعى واعتبر العلماء أن اكتشاف نظرية الطفرة فى الوراثة هو منشأ الاختلافات الوراثية غير المتوقعة .

وأعلن العلامة والاس : أنه من المستحيل أن يكون الانسان قد تم تكوينه على طريقة التطور والارتقاء حيث قال : أن الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لايصدق على الانسان ولابد من القول بخلقه رأساً ، وقال فرخو أنه قد تبين لنا من الواقع أن بين الانسان والقرد فرقاً بعيداً فلايمكننا أن نحكم بأن الانسان من سلالة قرد أو غيره .

وقال أجاسير : أن النشوء لايتم إلا وفقا لخطة إلهية حكيمة وأن الاصطفاء الطبيعى إذا ماحل محل الخالق الالهى فإن الانسان يكون قد جرد من روحه وغدا إله صماء . أن التفسير الحرفى لنظرية دارون يفسح المجال لتأليه سوبرمان نيتشة وتمجيدالقوى البدنية على أنها الأساس الوحيد للسلوك بين الناس ، أن الفكرة التى يعتنقها الداروتيون عن تناسل نوع جديد بواسطة نوع سابق ليست إلا افتراضاً اعتباطياً يتعارض والآراء الفسيولوجية الرصينة .

وتتردد دفوع كثيرة عن فكرة دارون من أنه لم يجعل نظرية التطور والارتقاء أساساً للدعوة إلى الالحاد وإنكار الخالق ، وأنه لم يقل بالتولد الذاتى أو نفى الخالق ، ويتردد أن أرنست هيكل تلميذ هيكل هو القائل بأن الحياة تولدت من المادة تولداً ذاتياً وبفعل الطبيعة وأن أنصار دارون وتابعيه

هم الذين زعموا أن أصل الانسان يرجع إلى القرد وأن القائلين بأن القرد هو أبو الانسان الأول هم غلاة الماديين الذين ألصقوا هذا القول بمذهب دارون ونفى هيسلي تلميذ دارون : أن الانسان قد تحدر من القرد .

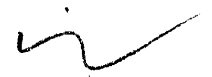
وتلاميذ دارون هم هيكل ولامارك وأوبادين .

وعنهم أخذ بخنر الذى حاول أن يجعل نظرية التطور منهجاً اجتماعياً .

لقد دخل مذهب دارون وأتباعه إلى العالم العربى عن طريق الترجمات وبواسطة مجلة المقتطف والدكتور شبلى شميل الذى ترجم شرح بخنر على مذهب دارون وتابع ذلك إسماعيل مظهر وسلامه موسى وغيرهم .

وقد حاول شبلى شميل فى جرأة عجيبة إلى الأخذ بمبدأ النشوء والارتقاء كقاعدة لتفسير الكون دون النظر إلى ماوراء الطبيعة والانسان فى نظر شميل استمداداً من دارون وبخنر — كائن بيولوجى يخضع لنواميس طبيعة لاتتزعزع ، وبات الكون كله سلسلة من الأجسام والكائنات يتوالد بعضها من بعض متدفقة على التوالى نحو مراتب جديدة من الارتفاع وقد جعل شميل النظام الطبيعى لا الدين أو الله منبع الأخلاق والمرجع الأخير فى تقرير القيم وصحتها ولم يبق له إلا خطوة واحدة حتى يرفض الدين رفضاً قطعياً ويستبعده من نظام الحياة الاجتماعية ويهدف مذهب دارون كما شرحه بخنر وكما أورده شبلى شميل ، إقرار مبدأ العلمانية فى تنظيم المجتمع وفصل الدين عن الدولة وإلغاء الوطنية الضيقة وإزاحة الأديان والوجود الذاتى الحاضر للأمة والدعوة إلى المواطنة العالمية ليصبح العالم أمة واحده تحت لواء القوى العالمية .

ولقد ووجهت هذه الدعوات والنظريات بردود فعل عنيفه وشجب كامل ورفض جماعى ، مما دعا أصحاب الدعوات إلى تخفيف الدعوة ونقلها إلى



أسلوب آخر على النحو الذى دعا به إسماعيل مظهر ثم سلامة موسى .

وكشفت حركة اليقظة أن نظرية التطور البشرى ليست إلا استنتاجاً وستظل استنتاجاً حتى توجد العظام الحقيقية التى تدلنا على كيفية تقدم الكائنات البشرية وظل الكلام عن الحلقة المفقودة يثير السخرية بالدعاة إلى مذهب دارون .

وقد ظلت علامات الاستفهام معلقة على رأس دارون وتابعيه والداعون إلى فكرته مطالبة بالبراهين ، لماذا كانت هناك حلقات مفقودة ، ولم يستطع دارون ولا أتباعه أن يجيبوا ، لقد كانت فروضاً ولم تكن حقائق ولكن الفكر التلمودى والمادى استطاع أن ينتفع بها أعظم انتفاع وأن يثير بها جواً من الإلحاد العاصف فى كل مكان .

والمعروف أن النظرية قد تلقفها من دارون مفكرون وفلاسفة وقوى خطيرة أرادوا بها أن تنتقل من ميدان البيولوجيا إلى ميدان الاجتماع والدين والهدف هو القول بأنه لاشىء ثابت وكل شىء يتغير والهدف هو استغلال هذه الشبهات وهذه الفروض للقضاء على مفهوم الأديان وكان ما أحدثته الدارونية فى عالم العقيدة وفى الفكر الأوربى كله أن فكرة التطور لم تنحصر فى الدراسة المعملية التى قام بها دارون ولا كان فى الإمكان أن تنحصر فى هذا النطاق وإنما دخلت مجالات الفكر الاجتماعى ولم يعد هناك شىء ثابت حتى فكرة العقيدة والألوهية .

ومن دارون بدأت فكرة التصور المطلق ، ومن دارون بدأت فكرة حيوانية الانسان وتفتحت أبواب الفكر الماركسى والفرويدى جميعاً وبه انفصلت النهضة الصناعية والكشف العلمى والحضارة والاستعمار والرأسمالية عن الدين واتجهت الحضارة إلى الاستهلاك : وقامت على صناعة أدوات

الترف والزينة والفساد ومزيد من الأرباح تدخل امبراطورية الربا اليهودية .

وقد ولدت بذلك النهضة الأوربية فى جو لادينى وعلى أساس لادينى .

ومع أن العلم قد شجب كثيراً من تلك الفروض الأولى وعارض رأى دارون وكشف عن فساد رأى الدارونية بحيوانية الانسان وأعلن عن تفرد الانسان فى نوعه وفى كيانه البيولوجى البحت فضلا عن كيانه النفسى والعقلى والروحى ، فإن فلسفة العلم ظلت تحتضن تلك الفروض لتأييد مفهومها المادى الالحادى للحياة .

وتبين فساد رأى دارون حين قال : الطبيعة تخلق كل شىء ، ولاحد لقدرتها ولقد تبين أن هذه حلقة خطيرة تربط بين رأى دارون بين الفلسفة المادية يقوم بها من رجال الصهيونية التلمودية .

وقد تبين ذلك فى عبارة بروتوكولات صهيون (أن دارون ليس يهودياً) ولكننا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ونستغلها فى تحطيم الدين ، لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشة بالترويج لآرائهم) والواقع أن عبارة (الترويج) عبارة قاصرة والحقيقة أن الطاقم التلمودى قد صنع من العلم أهواء خطيرة فى طريق هدم مقررات الدين وأن نظرية دارون فى النشوء والارتقاء وفى التطور قد استغلت أبشع استغلال لتحطيم الدين والأخلاق وكان من أبرز ثمار الدارونية : ماركس وفرويد ودوركايم ، وقام الفكر الغربى على احتقار الدين والقول بأنه ليس فطرة وأن الجريمة ظاهرة سوية وتصوير الانسان على أنه حيوان وإنكار الأسرة وتحطيمها ووصف الأخلاق بأنها نسبية وأنها انعكاس للوضع الاقتصادى وأن الزواج والدين ليسا من الفطرة وأن للمرأة أن تحقق كيانها تحقيقاً جنسياً خالصاً من القيود ،

وقد أدخلت هذه المفاهيم إلى التقدم الصناعى فأصبح يستهدف الشهوات ويقوم على النظام الربوى وكان تطور حركة السينما والقصة والأزياء فى الاتجاه الاباحى والانحلال نتيجة طبيعية لذلك .

ذلك موقف فلسفة العلم .

ولكن ماذا كان موقف العلم التجريبى .

(٢)

أن العلم اليوم قد كشف فساد نظرية دارون وأعلن أنها أسطورة قد انهارت فإن الكشوف العلمية الجديدة أثبتت أن الانسان لم ينحدر من فصيلة القرد .

لقد تبين اليوم أن نظرية دارون باطلة بعد أن أزعج اتباع دارون — والذين تلقفوا نظريته — العالم والجنس البشرى بالباطل مائة عام ويزيد حين أعلنوا أن الانسان منحدر من سلالة القرود وجاء علماء الانثروبولوجيا (أى علم الانسان) فأخذوا على عاتقهم عبء ربط حلقات هذه السلسلة الغريبة التى تبدأ بالقرد وتنتهى بالانسان .

وجاء علماء النفس والاجتماع والأخلاق وأعلنوا أن الانسان حيوان شهوة أو حيوان بطن ، وبالرغم من أن نظرية دارون قد أعلنت أن هناك حلقات مفقودة يجب البحث عنها قبل التصديق بما قال به ، ولقد ذهب العلماء كل مذهب فى سبيل البحث عن هذه الحلقات ، فى الجماجم والعظام وبقايا الانسان المتناثرة فى أنحاء العالم القديم من جزر جاوة إلى كينيا وروديسيا والصين ، ووجدوا هذه الجماجم والعظام المتناثرة التى يرجع تاريخها إلى مايقرب من خمسة عشر مليوناً من الأعوام ، فماذا قالت تلك العظام والجماجم .

لقد ظلت نظرية دارون فى أصل الأنواع قاعدة أساسية للعلم الحديث والفكر المادى حتى خيل للبعض أنها من مسلمات العلم التى لا سبيل إلى نقضها ، ولكن الأيام كشفت زيف النظرية وأثبت تقدم العلم والحفريات الأثرية أن هذه الفرضية التى فرضها دارون ولامارك وغيرهما كانت قابلة للخطأ وأن كل ما ترتب عليها وأسس عليها من فكر علمى هو وهم باطل .

وكانت النظرية المادية التى قامت خلال هذه العصور الطويلة على نظرية دارون ترى أن الخليقة كلها من أصل واحد وإن الإنسان فرع من فصيلة الحيوان فى أرقى درجاته وهو القــــرد ، وقد عارض الباحثون من العلماء البيولوجيين هذا الافتراض ، ولكن قوى كبرى كانت وراء الانتفاع بالنظرية وتحويلها إلى نظرية التطور الاجتماعى المطلق التى اشتقها هربرت سبنسر من نظرية التطور البيلوجى وكان لها أبعد الأثر فى معارضة الحقائق الأساسية الجامعة الرابطة بين نظام الثوابت والمتغيرات من حيث حاولت أن تلقى ظلالا باطلة على أنه لا توجد ثوابت مطلقاً وإن الحياة كلها فى تغير دائم وتطور مطلق وهذا ماذاع وشاع وسيطر بعد ذلك على مفاهيم النفس والأخلاق والاجتماع.

والآن وبعد مرور قرابة مائة عام يجيء العلماء ليعلنوا بطلان هذا كله حيث تعلن جماعة العلماء التجريبيين : فى صراحة تامة إنه لا علاقة للإنسان بالقرد ولا تجانس بينهما .

١ — جال بيفتو رئيس المجمع العلمى الفرنسى :

لقد وقف هذا العالم نصف قرن تقريباً على دراسة أصل الإنسان واستطاع أن يؤكد أخيراً أن الإنسان ليست له علاقة تجانس بالقرد ، وهو يثبت بالأدلة أن النظرية القائلة بوجود جزء مشترك اتشعبت منه كل من الجنس البشرى وجنس القردة الكبيرة لم تزل مفتقرة إلى البرهان الحاسم وإن هذه المشابهات بين القرد والإنسان غير كافية للجزم بوجود أصل للإنسان والقرد .

وليس من المعقول أن الإنسان الحاضر ربما انحط عن منزلته غضون ملايين السنين القادمة ليترك المجال لحيوان من الحيوانات ليحل محله ويسيطر على الكون وهذا الافتراض مرفوض لأن الإنسان لم يظهر على الأرض بمجرد صدفة بل إنما كان بمثابة الهدف الأخير من تنظيم الكون ولذلك ظهر مركباً فى أكمل تقويم .

٢ — الدكتور رونالد جونسان أستاذ علم الأجناس البشرية :

إن العلماء يستطيعون الآن أن يقولوا بنسبة ٩ر٩٩ فى المائة من الدقة إن الإنسان سار منتصباً على قدميه منذ بداية تاريخه الإنسانى منذ أكثر من ثلاثة ملايين سنة ، أعلن هذا فى مؤتمر صحفى — مارس ١٩٧٤ — وهو يمسك فى يديه بخمس قطع من العظام يرجع تاريخها إلى ثلاثة ملايين سنة عثر عليها فى أواخر عام ١٩٧٣ فى أثيوبيا ويعتبر الآن واحداً من أعظم الاكتشافات فى التاريخ الطبيعى للأجناس البشرية فقد ظهر الإنسان كائناً فريداً فى نوعه وسط دنيا من الوحوش الكاسرة وإن هذه العظام قد سدت الثغرة التى ظل العلماء يتحدثون عنها تحت اسم — الحلقة المفقودة — وإن ما وصل إليه الدكتور رونالد جونسون كان خاتمة حفريات كثيرة تمت خلال سنوات ١٩٦٩ وما بعدها فى كينيا ووادى أفار فى الحبشة ومن أهم ما تقرر أن الجماجم فريدة فى نوعها تتميز بسعة الدماغ مما جعل العلماء يخرجون بانطباع عام وهو أن الإنسان لم ينحدر من سلالة مشتركة تطورت مع الوقت إنما كانت له سلالته الخاصة المستقلة . ويقول الدكتور جونسون إن المعلومات التى أمكن التوصل إليها عن طريق عظام الساق والفخذ فى مجال تكوين الحوض والبناء العظمى العام تقرر بانتصاب الإنسان وأقول إننا نملك أدلة واضحة وجلية على أن الإنسان القديم كان يسير منتصب القامة منذ أكثر من ثلاثة ملايين سنة .

٣ — الدكتور بير بيرسون الأخصائي في علـم الوراثة في جامعة أكسفورد :

أكد أنه بالاستناد إلى المقارنات الطويلة التي أجراها بين عناصر الخلايا التي تحدد أصول الوراثة إن الإنسان لم ينحدر من القرد وأنه لم تعد هناك حاجة تدعو لدراسة ظهور القرد وتطوره على سطح الأرض بغية التأكد من طبيعة الإنسان الحقيقية فقد أصدر الدكتور بير بيرسون مع ثلاثة من زملائه قانون اشتهر باسم قانون القرد حظروا فيه على المدارس والجامعات أن تدرس المذهب الداروني — مذهب النشوء والارتقاء ، وذلك لبطلان النظرية التي كانت تقول إن الإنسان هو الحلقة الأخيرة من تطور انطلق من أول أنواع القرود مروراً بالشمبانزي والغوريلا حتى الأوران أوتان الذي تشبه الإنسان إلى حد كبير وقد تبين أن فرضية الدكتور بير بيرسون قد أيدتها الاكتشافات الأخيرة في أفريقيا .

وبالجملة فقد أصبح العلماء الآن عن طريق الكشوف الأثرية وتقريرات العلم الحقيقي — لا الفلسفة — متأكدون مما جاء به الدين الحق وجاء به الإسلام من أن الإنسان خلق مستقلا وإنه سيد المخلوقات وصدق الله العظيم :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

٤ — في السنوات الأخيرة رويت تجربة العالم لبكي مدير المتحف الوطني في كينيا الذي استمر في أعماله الحفرية لمدة تقارب ثمان وعشرين عاماً قبل أن يصل إلى اكتشافه الهام وكان أول اكتشافاته عام١٩٥٩ حينما عثر على جمجمة وبقايا عظام متحجرة في شمـال كينيا لها صفات تختلف كثيراً عن صفات القرد، ولم يحرك هذا الاكتشاف ثائرة الأوساط العلمية المؤمنة بنظرية داروين .

ثم اكتشف بعد ذلك جمجمة لإنسان أسماه : هوموهايلس، أى الرجل اليدوى وبين عام ٦٠/١٩٦٤ اكتشف مجموعة من المخلوقات فى جبل كينيا وهى تتميز بأصابع سبابة تشبه أصابع الإنسان وحجم مخها أكبر .

فسر ليكى الاكتشاف بأنه فرع جديد من شجرة التطور الإنسانى تختلف تماماً عن شجرة دارون ، واستمر ليكى فى أبحاثه حتى أصبح شوكة فى جنب علماء الأنثروبولوجيا . اكتشف أنه فى إحدى جبال كينيا جمجمة وعظاماً هزت الأوساط العلمية إذ بعد قياس عمرها الجيولوجى بواسطة أجهزة الإشعاع الذرية وجد أنها ترجع إلى مليون وستمائة ألف سنة تقريباً ، وأهم ما يميزها هو حجم المخ فقد وجد أنه حوالى ٨٠ سنتيمتر أى ضعف حجم مخ القرد الجنوبى وتزيد عليه مليون سنة .

هذا المخلوق يعتبر حلقة هامة من تاريخ تطور الجنس البشرى مؤكداً أننا نلتمى إلى فصيلة أخرى غير فصيلة القرد الشمبانزى وقد سمى الاكتشاف الجديد باسم الإنسان ١٤٧٠ من أهم ما يميزه : أن شكل الجمجمة والأسنان وعظام الساق تشير إشارة واضحة إلى شكله وكيفية سيره لأن زاوية ارتباط العمود الفقرى بقاع الجمجمة تؤكد أنه كان قادراً على المشى مثلك تماماً ، ولم تكن له صفات الوحش المفترس ، وذلك كله يثبت خطأ النظريات الاجتماعية التى بنيت على آراء دارون من أن الصفات العدائية فى الإنسان ترجع إلى أجداده القردة .

٥ — أذاع البرفسور جوهانس هود دبر العالم الذرى فى سنميال بسويسرا بياناً فى ١٠ مارس ١٩٥٦ عارض فيه نظرية دارون بشدة وقال إنه لا يوجد دليل واحد من ألف على أن الإنسان من سلالات القرد وإن التجارب الواسعة التى أجراها دلت على أن الإنسان منذ عشرة ملايين سنة يعيش منفرداً وبعيداً جداً ، كذلك أعلن دكتور دونير المشرف على أبحاث جامعة كولومبيا وأيده

البروفسور هوردلر (٣١ مارس ١٩٥٦) إن نظرية دارون هو رأى لا أساس ولا أصل علمى له وإن الكائنات إنما خلقت مستقلة الأنواع استقلالا تاماً فمنها الإنسان الذى يمشى على رجليه ومنها الدواب التى تمشى على أربع ومنها الزواحف التى تمشى على بطنها وصدق الله العظيم :

(منهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجليه ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء) .

لقد تآزر دليل العلم مع أدلة الدين الحق على تأكيد فساد نظرية دارون بشقيها وعلى أنها أسطورة انهارت وصدقت الكشوف الأثرية رأى الدين فى أن الإنسان خلق من جنس مستقل .

أن ما أثبته العلم أخيراً لم يكن مفاجئة فإن علماء كثيرون متجردون أعلنوا أن الأنواع كلها ظهرت إلى عالم الوجود دفعة واحدة كاملة العدة دون سابق إعداد أو خطوات متوسطة فلم يكن هناك ثمة حاجة إلى سلسلة من الأجيال المتعاقبة أو الانتخاب الطبيعى أو تنازع البقاء ، وقد قال بذلك كثيرون من قبل .

ولكن أنصار دارون وأنصار التطور كانوا كالكلاب الضارية يأكلون كل من يحاول أن يكشف زيفهم فى محاولة لئيمة تهدف إلى إفساد الفكر البشرى كله وتسميم الأديم الإنسانى كله بما وراء ذلك من غايات وأهداف .

لقد كانت جماعة دارون من الملاحدة والمعطلة يهدفون إلى تدمير الإنسان .

يقول أودن لويس : أن المؤمن يرى كل تطور نتيجة فعل القوة الإلهية فى الطبيعة لا نتيجه تطور ذاتى وأن دراون خطر على الدين لأن مذهبه لا يعطى المقام اللازم للعزة الإلهيـة فى تطور الكون ، وإن فئات متعددة من

الدارونيين معطلة ، تقول بأن الله نفسه من خلق الإنسان وإن أصل كل شيء كيس هلامى كان فى الماء (نخت وهجل وبخنر وكليفرد) أما سبنسر وهكسلى وتندولين وأتباعهم فيؤلفون فئـــة اللا أدرية التى لا تهتم بالقضية الدينية إطلاقاً لأنه فى نظرها لا دخل لها فى مسألة النشوء والارتقاء .

إن أول ما نطالب به رفع التناقض فى البرامج الدراسية بين ما يتصل بالعقيدة الإسلامية وبين هذه النظريات الوافدة ونحول دون أن يتمزق شبابنا بين عقيدة الدين وفرضيات العلم وخاصة بعد أن سقطت نظرية دارون وانكشف فسادها .

الفصل الرابع

العلم والنظرية المادية

اعتمدت النظرية المادية فى أساسها الذى قامت عليه على بعض فرضيات العلم فى مراحله الأولى حين كان يستعلى ويستطيل ويحسب أنه يستطيع أن يفسر الحياة، وحين كان العلماء يقدمون الفرضيات على أنها حقائق ومسلمات ثم تبين من بعد ذلك فسادها وقصورها ثم لم يلبث أن تجاوزها العلم نفسه ولكن أصحاب الفلسفة المادية الذين أقاموا نظريتهم على تلك الأساس التى تبين بطلانها ظلوا ومازالوا مصرين على تلك الجذور الفاسدة، ذلك لأن النظرية المادية ليست علماً تجريبياً وإنما هى محاولة لاتخاذ العلم وسياة إلى المعرفة. لقد قامت النظرية المادية على نظرية دارون فى الخلق الذاتى وفى الارتقاء وفى التطور وكلها نظريات اعتورها الفساد وانكشف أنها لم تكن صحيحة.

أن أخطر ماقامت عليه النظرية المادية هى التوقف عند معطيات الحواس فى التجريب ومعطيات العقل فى الفلسفة، ووقوف العلم عند الطبيعة وتأليهها وإنكار الميتافيزيقية جملة واعتباره وهذا الذى قامت عليه النظرية المادية. لم يلبث أن تحطم بانفلاق الذرة وظهور نظريات الضوء التى قامت على أساس وجود عالم آخر خارج الحس تجىء منه الأشياء وإليه تذهب وأصبح العلم يعترف الآن بهذا العالم المجهول. فلماذا تصر النظرية المادية على إنكار ما اعترف به العلم، الجواب أن النظرية المادية ليست علماً صحيحاً ولكنها محاولة من محاولات تدمير النفس البشرية وأنها تخدم غايات ليست علمية.

ثانياً: أن النظرية المادية تدعى منهج العلم والموضوعية ولكنها فى أغلب



الأمر تستخدم فى خدمة أيدلوجيات ومذاهب وأهواء سـياسية واجتماعية وتوجه نتاجها لأغراض خاصة ومصالح خاصة .

والفلسفة المادية لا تستقر إلا حيث يخلو لها الجو من النقد العلمى الصحيح أو الرقابة العلمية الدقيـقة لأن أهلها كثيراً ما يعتمدون على المغالطات والسفسطات فيسوقونها باسم العلم وما هى منه فإذا صادفت نفوساً خلت من حقائق العلم أضلتها ودفعت بها إلى أقصى حدود التطرف .

والمذهب المادى فلسـفة لا علم وفرق كبير بينهما ، فالعلم يردد بوسائله مجاهيل هذا الوجود الضخم ويدون العلاقات الموجودة بين ظواهره منها ويضم الأشباه والنظائر ثم يبذل وسعه ليجد النواميس العاملة فى كل طائفة منها وهو يحلل المواد ليعرف عناصرها الأولية » .

أما الفلسفة التى وصفت نفسها بالطبيعية وهى التى تعتمد على المذهب المـادى فهى تقول بأن الوجود مادة محضـة ومحكوم بنظام لا يتخلف وأن ما يسمى عقلا وروحاً وعواطف هى حالات راقية من المادة وليس لها وجود خاص تستمده من ينبوع سواها » .

ثالثاً : النظرية المادية تعتبر المادة أصلا والوعى أو الفكر نتاجاً لها ، وهى ليست نظرية مستحدثة بل هى نظرية هلينية قديمة وقد ارتبطت عند فلاسفة اليونان بمفهومهم الفاسد بخلود المادة وبالثبات المطلق عنـد أرسطو وقد كان من أئمة المدرسة المادية التجريبية فرنسيس بيكون وجاء بعـده هوبز وديكارت وسبينوزا ولوك ولامارتى وهولباخ وبدروا وفيورباخ أكبر ممثلى المادية قبل ماركس على الإطلاق ومن نظرية ماركس وانجلز اكتسبت المادية شكلا جديداً حيث ظهرت المادية الاقتصادية .

والمادية التاريخية ترتبط بالنظرية التى قدمها ماركس لتفسير التاريخ ، على



أساس أن العامل الاقتصادى هو العامل الأكبر والأهم ، والمادية فى مجموعها تعتمد على أن نظرتها إلى الكون مادية وأن العالم بطبيعته مادى وأنه يتكون من المادة المتحركة التى تتحول من صورة إلى أخرى .

وهذا المفهوم قد رفضه العلم ورفضته الفطرة بعد أن تدهورت النظرية الدارونية وأصبح فى تقدير العلماء أن إرادة الله الخالق هى الأساس الثابت لكل مفهوم علمى . وإن المادة ليست إلا شطر المفهوم الجامع المتكامل بين الروح والمادة . وإن تجاهل إرادة الله الخالق ، ووصفها بالطبيعة ونسبة كل شىء إلى المادة هو مفهوم تخطاه العلم اليوم بعد أن تحطمت الذرة وتبين أن الخفى من الكون أضعاف ما تدركه الحواس ، ومن هنا فإن النظرية المادية ليست علمية أساساً .

رابعاً : بدأت النظرية المادية صدوراً عن العلم الطبيعى بمفهوم صدور المعرفة عن التجربة واختبارها بواسطة التجربة ولكن الميدان الذى عملت فيه التجربة هو الميدان الإنسانى الذى لا يمكن إخضاعه لمقاييس التجريب لأنه متصل بالنفوس والأرواح والعواطف والوجدانات والمشاعر والأحاسيس .

ولذلك فقد فسدت نظرية سبنسر فى قوله بأن المجتمع كائن حى كبير يخضع لنفس القوانين التجريبية ، لقد اعتبر المجتمع كائناً حياً فهو تحت تأثير اعتقاده بعدم وجود فروق بين الحياة البيولوجية والحياة الاجتماعية راح يطبق قوانين علم الحياة على الحياة الاجتماعية وقال العلماء أن هذا أسلوب غير علمى ، ولقد كان من أشد مفاهيم سبنسر اضطراباً وفساداً هو تطبيقه الأساليب المادية على الأخلاق ، الأمر الذى أشاع الأنانية وحب الذات والأثرة وخاصة دعوته إلى القضاء على الضعفاء والمرضى والمسنين ، وقد وصل إلى القول بأن المنفعة هى القانون الذى يحكم به على طبيعة عمل ما وإن السلوك الخلقى هو ما يتفق

مع ظروف الحياة فكل ما يؤدى بالفرد إلى اللذة فهو أخلاقى ، ولا ريب أن مفهوم سبنسر هذا قد ثبت فساده واضطرابه .

خامساً : وجدت المادية سنداً كبيراً فى أراء ديكارت ، هذه الآراء التى ترجع كل التغيرات فى العالم الطبيعى وفى الإنسان نفسة إلى ظاهرة الحركة وإلى تأثير الأجسام بعضها فى بعض وبالرغم من أن ديكارت له آراء وبراهين على وجود الله ولا مادية النفس فإن ديكارث فصل بين المادية والمثالية ولم يحاول التوفيق بينهما .

وعنه جاء أمثال هيوم الذى لا يؤمن بوحدة الذات أو بوجود جوهر للنفس ولا بخلودها .

سادساً : يرى لانجه أن المادية طريقه فى تفسير الظواهر متحررة من الميتافيزيقية ، قريبة من روح العلم ، ولكنها لا تعدو أن تكون طريقه فى فى تفسير الظواهر فحسب وإنها لا تقدم تفسيراً نهائياً للأشياء فى ذاتها وهى تقضى على ذاتها إذا حاولت أن تقيم بدورها نظريتها الميتافزيقية الخاصة إلى الكون وتدعى أنها التعبير الكامل عن الطبيعة النهائية للأشياء .

وقال لانجه أن المذاهب المادية عاجزة عن التوصل إلى الطبيعة النهائية للأشياء وينكر لانجه زعم المادية بأنها المذهب الوحيد الممثل للعلم ، وقال إن الكشوف العلمية جميعها قد تمت على أيدى علماء لم يكونوا من ذوى النزعة المادية ، وأبان فساد نظرية تطور الإنسان من مادة حيوانية سائغة وأعان عن أن خطأ النظرية المادية هو القول بأن المادة هى جوهر الأشياء والموجودات جميعاً .

سابعاً : أشار كثير من الباحثين إلى أن هذه النظريات قد ظهرت فى مجال الطبيعة والجماد والتجريب وإنه من الخطأ الانتقال بها من ميدان الطبيعة إلى ميدان المجتمع ، وإن هذا التحول كان خطأ كبيراً فإنه قد شط بأصحابه إلى

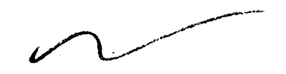


القول بأن الدين من أصل أرضى والغض من قيمة القيم الأخلاقية ، وكيان الأسرة وجوهر الفطرة ، وكانت نظرية دروكايم فى الأخلاق والأسرة والدين وفرويد فى النفس وماركس فى الاقتصاد هى ثمرة هذا الانحراف المادى .

ثامناً : إن القول بالمادية المطلقة يستتبع القول بأن المادة أزلية أبدية ، وإنها كاملة غير متطورة وهذا ما يتنافى مع القوانين العلمية كما يستلزم إنكار العقل إذ هو غير مادى . والحتمية تقتضى وجود نظام فى المادة هو فى نفسه دليل على وجود قوانين تحكم حركة المادة ، والقوانين عبارة عن علاقات عقلية لا تضعها المادة لنفسها لأنها غير عاقلة والحتمية تستلزم أن المادة تسير وفق غاية مرسومة ، والغاية توضع قبل أن يوجد الشىء الذى عليه أن يحققها فالنحات قبل أن يعمل أزميله فى قطعة الحجر يكون قد رسم لنفسه الغاية التى يبتغيها من عمله ، فالغاية إذن سابقة على وجود الشىء وهى فكرة عقلية تحكم المادة وتوجهها فهى إذن تستلزم وجود قوة روحية عاقلة (عبد المجيد عبد الرحيم) .

تاسعاً : المادية تنكر الغائية وإن خلق الكون كان لغاية مقصودة هى خير البشرية كما أن كل ما يقع فى الكون لا يقع بصورة عشوائية وإنما يجرى وفق تلك الغاية ، فليس من حادث يحدث من دون غرض يخدمه سواء كان خفياً أو ظاهراً ، وكل ما فى عالم الإنسان وما فى الكون بأسره يجرى وفق تقدير مسبق لا يحيد عنـــه ، فكل حدث يجرى بقضاء وقدر لا يردان ولا يقهران .

فالغائية إذن تعنى الحكمة التى ارتآها الخالق وأجرى حوادث الكون بمقتضاها ، فقد أوجد الكون لغاية وخلق الإنسان لغاية ، وركب هذه القوانين الدقيقة فى طبيعة الأشياء لغاية ، وكل ما فى حياتنا يجرى لغاية . والفلاسفة الماديون ينكرون الغائية ويرون أن الكون آلة كبيرة جاءت عن طريق المصادفة وستبقى دائبة على العمل من دون هدف تسعى إليه ، والعالم لا يفسر



الأهداف وإنما يفسر الوسائل ، أى أنه لا يحبث عن (لماذا) ولكنه يجيب عن (كيف) .

فالعلم لا يستطيع أن يجيب عن الهدف من خلق الإنسان لأن الأهداف تقتضى الاعتقاد بوجود قوة خارج هذا الكون ترسم وتخطط مصير الكون والإنسان ، ويقدر لها مسيرتهما فى هذه الحياة ، والمادية تنكر وجود هذه القوة .

وإنكار الغائية فى الفلسفة المادية يؤدى إلى الاعتقاد بأن حياة الإنسان مسيرة بظروفه ودوافعه وغاياته .

ومن فساد مفهوم المادية اعتمادها على نظرية التطور فى القول بأن التطور يجرى بقانون الانتخاب الطبيعى الذى يسعى إلى بقاء الأصلح ، ولما كانت هذه النظرية البيولوجية قد سقطت ، فإن بقاءها فى الفلسفة المادية من شأنه أن يحول دون الوصول إلى الحقيقة .

وفى الطبيعة قوانين مذهلة توحى بأن وصفها بتلك الصورة كان لغاية حكيمة ، من ذلك أن الماء هو السائل الوحيد فى العالم الذى تكبر كتلته عندما يتجمد أى تقل كثافته بالتجمد ، ولهذه الميزة الفريدة أهمية عظيمة فى هذا العالم ، فلو أن الماء يزداد كثافة عند تجمده لرسبت الثلوج فى قاع الأنهار والمحيطات ، وبقيت هناك بعيدة عن أشعة الشمس فلا تذوب ، وبهذه الصورة تنقص كمية المياه سنة بعد سنة حين تجمد ، وتنقص كمية ما فى الأرض من مياه ولكن كتل الجليد تبقى طافية على سطوح الأنهار والمحيطات ، فلا تجمد ما تحتها من مياه ، كما أن طبقة الثلج التى تنشأ فوق الأنهار تحمى حيوانات تلك المياه ، ولولاها لماتت تلك الحيوانات من شدة البرد أو عجزت عن الحياة .

كذلك لو لم يكن المـاء مذيبا لكثير من المواد الغذائية فى التربة لما استطاع النبات أن ينمو على وجه الأرض فهل صفات المـاء هذه جاءت مصادفة أم أنها وضعت لغاية حكيمة أو حكمة مقصودة .

وهكذا ترفض المادية الغائية : وهى أن خلق الكون كان لغاية مقصودة .

وأن الغائية هى الحكمة التى ارتآها الخالق وأجرى حوادث الكون بمقتضاها فقد أوجد الإنسان لغاية وركب الكون لغاية حيث ينكر الماديون الغائية ويرون أن الكون آلة كبيرة جاءت عن طريق المصادفة .

كذلك لاتؤمن الفلسفة المادية بالدين وهى ترى أنه نظام من وضع البشر لأنها لاتؤمن بوجود الخالق ولا الملائكة ولاتؤمن بحياة أخرى بعد هذه الحياة وأن هذا الفهم هو الذى أودى بالمجتمع الغربى والحضارة الغربية ، لأنه ينكر أن هناك مسئوليات وجزاء وواجبات وينكر رسالة الإنسان المحددة ، وهو مفهوم يدفع إلى النهم فى التمتع بالحياة التى ستنتهى وليس بعدها شىء فى تقديرهم ، وهو يؤدى إلى فهم الحياة وكأنها لعبة أو عبثاً وأن وجود الإنسان على الأرض لا هدف له . وذلك كله باطل .

٦ عاشراً : أن الحقائق التى كشف عنها العلم التجريبى تهدم مفهوم الفلسفة المـادية من أساسه فتسقط مفهوم إنكار الغيب وتسقط مفهوم الحتمية ، وتسقط مفهوم ثبات المادة ، فقد اتضح أن المادة تتحول إلى طاقة والطاقة تتحول إلى مادة وهذا هدم كامل للقاعدة القديمة التى قام عليها مفهوم المادية ، وماتفرع منه من مذاهب ونظريات وأيدلوجيات ، لقد ظل مذهب نيوتن زهاء قرنين ونصف قرن مقيما على القول بثبات المـادة وعنه تشكلت المذاهب المـادية ثم جاءت نظرية النسبية على أنقاضها وقامت على تكافؤ المـادة والطاقة وأن المـادة والطاقة متحدتان اتحاداً لا إنفصام لهما وأن هناك تأثير متبادل بينهما ودورة مستمرة للطاقة والمادة ، وبذلك تغير مفهوم المادة فى نظر العلم .

لقد كان الظن أن المادة لاتنقسم إلى مالا نهاية له بل تقف عند حد لايتجزأ وهذا الذى سموه الذرة أو الجوهر الفرد ثم تغير هذا المفهوم فهدم كل ماقام عليه العلم المادى حيث ثبت أن الذرة قابلة للتجزئة فبعض الذرات تنفجر من تلقاء ذاتها مثل ذرات الراديوم واليورانيوم وغيرهما واتضح أن الذرة تتحلل إلى ثلاثة أجزاء أو أشعة وبذلك انطلقت المادة الذرية وأصبحت طاقة يمكن استخدامها فى أغراض الحرب والسلم .

وقد كانت معارضة المادة القديمة للأديان من حيث كانت تدعى هذه الحتمية المستمدة من طبيعة الأشياء حتى لقد ذهب غلاة الماديين إلى القول بأن المادة هى كل شىء وهى أصل العقل والشعور .

يقول نجايمس تجينز فى كتابه العالم من حولنا :

كان حجر الزاوية فى علم الطبيعيات فى القرن التاسع عشر هو بقاء المادة أو خلودها من جهة وبقاء الطاقة من جهة أخرى وقد بطل هذا الفهم بطلاناً تاماً وأقيم مقامه ناموس آخر هو بقاء ذاتية واحدة هى المادة والطاقة ، بطل أن يكون كل من المادة والطاقة على حدة خالدة البقاء أو متغيرين بل هما متغيران معاً من حال إلى حال لأنهما شىء واحد . المادة تصير شكلا من أشكال الطاقة ، هذه الطاقة التى تنشىء الحياة على الأرض : ومعنى هذا فناء المادة .

حادى عشر : أن المذهب المادى بعد التقدم السريع الذى حققه العلم الفيزيقى أخيراً وبخاصة فى مباحث الذرة لم يصبح منعزلا عن ميدان الأخلاق والدين كما كان فى القرن الماضى ولم يعد هناك ذلك الفارق الحاسم بين الجسمانى والنفسانى أو الروحانى حتى أصبح كثير من الماديين يقرون بوجود الله والنفس وخلودها باسم العلم نفسه (أحمد فؤاد الأهوانى) .

يقول براث أن العلم أصبح يمتاز بميزتين : الديناميكية والغائية والغائية تستلزم بالضرورة عقلا مدبراً وبذلك يقترب العلم من الدين ، كان الظن إلى عهد قريب أن المادة لاتنقسم ثم أصبحت المادة والطاقة مظهرين لشيء واحد : تحول المادة إلى طاقة والطاقة إلى مادة .

ثانى عشر : يقول العلامة هالدين فى كتابه المادية : ماتت النظرية المادية : بالنظرية القائلة بأن الذرات مركبة من الكهرباء وبروتونيات موجبة والكترونات سالبة وطغت عليها نظرية الكوانتوم وأن الكهربائية تجىء شحناتها من المجهول وتذهب إلى المجهول ومن هنا لم يعد المذهب المادى يستطيع الإجابة على هذا السؤال .

ويقول هالدين : معاقاً ، أن الحقيقة التى طفق الإنسان يبحث عنها دهوراً مديدة هى روحانية فى جوهرها والروح لايدركها العقل .

ثالث عشر : لقد حطم العلم اليوم تلك القاعدة التى عاش عليها أكثر من ثلاثمائة سنة وهى المادة التى يرتكز عليها القانون الطبيعى ، لم تعد القاعدة الصلبة من المادة هى أساس الطبيعة .

لقد كشف العلم الحديث عن جانب خطير من القانون الطبيعى حين أعلن أن أساس الطبيعة هى الحركة ، وليست المادة — الذرات بأشكالها المتناهية فى الصغر والتى يتحرك فتضفى الشكل المادى للأشياء وهذه الذرات هى الأخرى تتشكل وفق حركة معجزة فى كيانها الداخلى (عماد الدين خليل) .

رابع عشر : فساد القول بأن هناك خصومة متبادلة من الجسم والروح ، أو أن هناك فصل بينهما أو تباين ، ومن هذا تلك الفكرة الواحدة التى تقول أن الجسم سجن للروح ، وقد تبين أن الجسم هو أداة الروح ، فى رسالتها فى الحياة ، وأن الالتزامات التى ألقاها الحق تبارك وتعالى على الإنسان قد ألقيت على الروح ،

ووهبت الروح من أجل القيام بها إطاراً جسمانياً طبيعياً فى أحسن تقويم ، ومن ثم لا يكون الجسد سجناً للروح بل هو معملها الذى تعمل خلاله ، لأنه إذا كان هناك أى إمكان لنمو الروح — أو النفس — ورقيها فإنما يكون فقط عند استعمال القوى والأدوات التى يمدها به هذا المعمل . وفى هذا يقول العلامة المودودى ، أن هذه الدنيا ليست دار عقوبة لاقتناص الروح بأية طريقة وإنما هى مجال العمل الذى أرسلها الله فيه لتؤدى وظيفتها وتعمل .

لقد خلق الله الإنسان : من طين الأرض وعناصرها ، ثم نفخ فيه من روحه ، ويقول الأستاذ عبدالمنعم خلاف أنه ليس بالروح وجود يخالف رأى العلم ويقول باستقلالها قبل اتصالها بالجسم بما لا يتفق مع سنن التركيب المادى لأجسام الاحياء ولامع طبيعة نشوء الإنسان ونموه من مرحلة إلى أخرى ، إن على المؤمن أن يرى دائماً يد الله الخالق المدبر وراء كل الظواهر والقوانين المادية المستقه فى حركة الطبيعة وبناء الإنسان .

الفصل الخامس

تجربة الغرب فى ضوء الإسلام

منذ أخذت موجة العلوم الحديثة تتسع وتنتقل إلى الأمم ، صاحبتها عاصفة من الإلحاد والشك والنظر المادى وغلبة بعض فروض لم تصل بعد إلى مفهوم العلم التجريبي الصحيح ، وقد امتدت هذه الموجة وسيطرت على العقول والنفوس وكانت لها آثارها البعيدة المدى فى مجال العقيدة الصحيح : لقد نشأ العلم فى أحضان الإسلام حتى جاء الأوربيون ففصلوا العلم عن الدين وشككوا فى الرابطة بينهما ومنذ ذلك الوقت نشأت قضايا عديدة اختلفت فيها وجهة النظر بين الإسلام وبين الغرب ، وكان أساس الخلاف أن الإسلام دين ونظام مجتمع وليس دينا لاهوتياً خالصاً ، لقد جمع الإسلام بين المادة والروح ، العقل والجسد ، والدنيا والآخرة ، ولكن العلم وفلسفته ومنهجه الذى سارت عليه أوربا أقام منهجه على المادة والعقل والمحسوسات وتجاهل جانب الروح والنفس والمعنويات وتجاهل عالم الغيب وماوراء المادة فجاءت نظرياته قاصرة .

والإسلام هو الذى نقل العلم من مفهوم التأمل إلى مفهوم التجريب الذى نشأت عليه الحضارة المعاصرة بكل معطياتها وبعد أن علا العلم فى النظرة وظن أنه قادر على فهم الحياة والطبيعة ، عاد فأعلن أنه مهمته قاصرة على دراسة الظواهر .

وهكذا نجد أن مفهوم الإسلام فى العلم مخالف لمفهومه فى الغرب ، فالعلم فى الإسلام هو العلم على إطلاقه وهو يتحرك فى إطار الدين كما تتحرك كل القوى ، وكذلك فقد قرر الإسلام أنه لاعلم بدون تقوى ولابدون خلق ،

وأن معطيات العلم التي وصل إليها الآن من فهم قوانين الطبيعة واكتشاف تلك الثمرات الضخمة إنما هو من الله تبارك وتعالى أصلا ، فهو الذى وهب العقول القدرة على الكشف والوصول إلى فهم تلك الأسرار ، ومفهوم العلم فى الإسلام لايقف عند حدود استثمار البيئة ، وإنما يتعدى ذلك إلى خلق الإنسان الكامل الذى لايتقيد بوطن أو جنس كما يتعدى معرفة البيئة إلى معرفة حالتها .

ومدلول العلم الحديث فى مفهوم الإسلام : إنما هو (كما عبر عن ذلك الأستاذ على حسن عمر المحامى) كاشف لحقيقة صنع الله وليس منشئاً لخلق من خلقه ، وأنه يعتمد أساساً على القانون الإلهى (لاتبديل لخلق الله) .

ومن هنا جاءت طريقة العلم الحديث فى الملاحظة والتجربة التى تتحول إلى نظرية ، فإذا ماثبتت النظرية على كل الوجوه من العلماء الباحثين وأصبحت حقيقة يقينية ، فهى فى هذه الحالة وحدها تكشف عن حقيقة علمية لو بحث الباحثون لوجدوا أنها حقيقة ثابتة فى العلم القرآنى وكل مايثبت كشفه فى العلوم الحديثة إنما جاء كاشفاً ومقرراً لحقيقة من حقائق خلق الله قال بها كتاب الله صراحة أو إيماءاً .

والعلم الحديث أخذ هذه الطريقة من علماء المسلمين وقد اعترف علماء الغرب بأنهم أخذوا طريقتهم من علماء العرب المسلمين وكانوا يعزون نجاح طريقتهم إلى اجتماع عبادة الله والإيمان به مع البحث العلمى والتجارب العلمية فى فكر العالم المسلم واجتهاده .

فقد ارتقى العرب إلى درجة علمية أساسها التجربة والملاحظة وأنهم الأساس فى إرساء المناهج العلمية الحديثة ، ولم يبتدع العرب والمسلمون هذه الطريقة ولكنهم أخذوها من منهج القرآن الكريم فى طرح العلم القرآنى ومن ثم فإن منهج العلم الحديث يتفق مع العلم القرآنى .



والعالم فى بحثه إنما يتجه إلى الملاحظة والفرض ثم التجربة والنظرية حتى تبلغ الوقائع المفسرة بهذه النظرية من الكثرة ما يجعلها حقيقة يقينية فتكون قانوناً عاماً كاشفا لقانون العصر أى سنن الله فى الكون .

وإذا تأيدت وانطبقت على القانون الطبيعى (الفطرة) فإذا تنافرت معها فهى لا تكون حقيقة ثابتة بل تخضع للتغيير .

(٢)
الدين والعلم

إن الخلاف بين الدين والعلم واحدة من القضايا التى يختلف فيها المفهوم الإسلامى عن مفهوم الغرب حيث لا توجد فى الإسلام تلك المشكلة أو ذلك الصراع .

وهى مشكلة إن الدين يقابل العلم والفلسفة أو يعارضهما فالإسلام مبنى على العقل والعلم وكتابه (كما يقول دكتور عبد الهادى أبو ريده) كتاب علم وحكمة وإذا كانت هذه المشكلة تعرض لبعض المفكرين فإنها دخيلة وآتية من مجالات أخرى ولا ينبغى أن نعرض لمن يعرف الإسلام أصولا وروحاً ومنهجاً ويعرف معنى العلم وحقيقة العقل وطريقته واليقين ومقياسه ، وقد تميز الإسلام عن غيره من الأديان بأنه نبه العقل واعتمد عليه وجعل العلم أساس العقيدة والبرهان سياج الإيمان .

(ثانياً) ويقول الدكتور محمد خليل عبد الخالق : إن الأساس الذى قامت عليه المذاهب العلمية فى القرن التاسع عشر قد انهار وأصبح العلماء الآن يتكلمون عن الكون وعن الإنسان وعن الحياة بعبارات صوفية والآن يكشف العلم عن ميادين حديثة تبحث عن الأرواح وأصل الحياة وغاية الوجود .

ويقول الدكتور على شوشه لقد اتسع التحقيق العلمى اليوم للمجهول وأخذ

العلماء يعترفون بأن الحقيقة كامنة وراء المظاهر وأن الكون ليس حقيقة فى ذاته وليس هو المظهر الوحيد للتعبير عن الحقيقة .

وليس هناك من شك فى أن قوة مدبرة مفكرة هى التى ابتدعت الكون، إلى هذا تومى الاكتشافات العلمية الأخيرة ، والعلم لا يتعرض بحال لطبيعة الأشياء وتفسير كنهها ، هـــذا القول هدم نظرية المادة ، وهذا الذى هدمها هو الذى أثبت أن الذرة تتكون من الكترونات — كهارب تدور حول بروتونات على نظام يحاكى النظام الشمسى ، وأن هذه تتحول إلى تلك .

ثالثاً : تقرر الآن أن ما تثبته التجربة ويؤيده الاختبار ، أنه ليس بين الدين والعلم خصومة بحال ، لأنه ليس من مباحث العلم إثبات وجود الله ولا إثبات نبوة الأنبياء لأنهما ليسا مما ينال بالتجربة أو يقع تحت الاختبار ، ليس بين الدين والعلم فى الحق خلاف ولكن الخلاف بينه وبين فلسفة العلوم والمذاهب الفلسفية .

رابعاً : القول بأن الدين يلغى العلم إنما هو خطأ فى الحكم وفساد فى النظر ، فالعلم فى مفهوم الإسلام طاقة من طاقات الإنسان ، أما الدين فهو منهج كامل للحياة البشرية يسعى إلى تنظيم علاقات الإنسان ، بكل ما له علاقة بالحياة والنفس والأسرة والمجتمع والعالم والأشياء ، وهو تكليف والتزام ومسئولية وجزاء ، أما العلم فهو علاقة واحدة من مجموعة علاقات جاء الإسلام لكى ينسقها ضمن نظام قوامه تصور كامل لوضع الانسان فى الكون .

ومن هنا فإن القول بأن العلم قد سدد إلى الدين ضربات متلاحقة وجعله يتراجع أمامه ، هذا القول غير صحيح على إطلاقه ، وهو من ترهات غــلاة المادية ، كانوا يتبجحون به قبل أن ينزل العلم إلى دنيا الواقع ويعترف بأن مهمته هى تفسير ظواهر الأشياء وإنه لا يستطيع أن يفهم كنهها .

كذلك فإن القول بأن العلم سيقضى على الدين هو وهم محض ، فقد مضت أجيال وأجيال وما زال الدين والعلم يعيشان معاً ، ذلك لأن الدين بمفهـــوم الاسلام ليس فى مواجهـة العلم دائماً هو منهج كامل يتحرك العلم فى داخل إطاره .

وما كان للعلم الصحيح أن ينكر الدين فيحكم على شىء من مفهوم بحثه ولا هو داخل ضمن دائرة نظرياته التجريبية الحسية ، وما كان للعلم أن يخرج عن وظيفته وهى مجرد الاستقراء والملاحظة للظواهر الطبيعية ولا يقول بالنفى والإثبات لما نجهله من الحقائق الكامنة وراء الظواهر .

(٣)
العلم والعقل

خطران واجها العلم الحديث فى قبضة الغرب : هما تأليه العقل وإعلاء الحس .

وبذلك يحاول العلم أن يحصر الموجود فى عالم ضيق محدود ، غير أن معطيات العلم وخاصة ما جاء بعد انفلاق الذرة قد كشف عن عجز العقل عن العطاء فى كل الميادين ، قال برجسون: أن العقل ليس أداة صالحة لإدراك حقيقة الكون لأنه يقف عندظواهر الأشياء وهويجزىء الوجود ليتمكن من دراسته جزءاً جزءاً .

هذا وقد قدم الاسلام مفهوماً أصيلا متكاملا للمعرفة، جعل للعقل فيسه مكانة عالية ولكنه لم يقرره بالمعرفة وحده ، وجعله نظير الوجدان وجعـــل للادراك وسائل أخرى غير العقل منها الادراك بالحس .

ولقد كان استعلاء القول بالعقل مرتبطاً بمفهوم المادية دون تقدير لفهم وظيفة العقل ودوره ، ولما عدوا به دوره ووظيفته عجز عن الاجابة ، فالعقل

لا يمكن أن يستقل بمعرفة الله ولا أن تهتدى إلا إذا صحبه فى تلك الغاية قلب وكأنه مصباح يحتاج إلى نور ، فإذا أعطى الفصل فى أمور خارجة عن قدرته فإنه يعجز عن النظر إليها والحكم عليها .

وصلاحية العقل هى فى حدود وظيفته ، فى النظر العلمى .

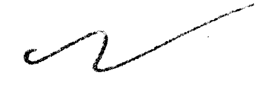
يقول الإمام الغزالى : إن أحكام العقل صادقة فى العلوم المنطقية والرياضية والطبيعية وفى كل ما يتعلق بأمور التجربة . والعقل يحتاج إلى المعونة الخارجية فى حالتين : الأولى لشفائه من الشك إذا ما انتابته آفته ، والثانى لتنبيهه وإرشاده إلى الأمور الالهية التى لا يمكنه الاطلاع عليها إلا بالوحى والالهام .

والعقل إذا اهتـــدى بالوحى والفطرة والدين توصل حتما إلى الاعتقاد بوجود الله تبارك وتعالى وإذا كان العقل لا يستطيع أن يقيم الدليل على صفات الله فإنه لا يعجز عن فهمها .

وقد أحل القرآن العقل منزلا سامياً وجعله نوراً ودعا إلى البرهان وإمعان النظر والفكر وحمل على المقلدين الذين يعطلون عقولهم ولا يستعملونها ، وأطلق حرية النظر ، وكان ذلك هو منطلق المسلمين إلى العلم وإلى إنشاء المنهج التجريبى ، ومن ذلك الفهم نشأ القياس .

وقد تقرر فى نظر العلم التجريبى أن العقل وحده لا يكفى ، وإنه ليس الأداة الصالحة لادراك الحياة لأن هـــذا مطلب فوق مقدوره وأكثر مما يستطيع .

واعترف عدد من العلماء التجريبيين بقصور العلم وعجزه فى ميادين كثيرة ومتعددة ونقضوا تلك النظرية القديمة التى كانت تقول أن مجالات العلم لا حدود لها .



ولقد أشار إلى ذلك باحث تجريبى كبير حين قال: مع تقديرى لأهمية العقل البشرى فى إكتشاف الحقائق ودعوتى إلى استعمال العقل فانى أعتقد أن العقل البشرى محدود فهو يستطيع أن يستوعب الأمور المحدودة ولا يزال يسعى إلى تفسير النظام المادى والكونى ولكن لم يستقر بعد على رأى فيه .

(٤)
العلم والفلسفة

عندما قصر العلم عن فهم كنه الطبيعة والعالم وماوراء الطبيعة وقصر مهمته على تفسير ظواهر الأشياء جاءت الفلسفة لتضع صورة هذا العالم المغيب ، حتى قيل ان التفكير الفلسفى فى الغرب يكمل الجانب الآخر حين يتحدث عن عالم الميتافيزيقا ، فى محاولة للكشف عن أوجه أخرى للعالم غير ذلك الوجه الذى تكشفه الحواس ، ولكن الفلسفة لأنها استمدت مفاهيمها من المادية لم تستطع أن تحل مسألة الميتافيزيقا لأنها وقفت عند معطيات الحواس كما وقف العلم عند معطيات التجربة وقد خاضت الفلسفة فى دراسة العقل البشرى والطبيعة البشرية فتخبطت وحاولت أن تعطى مفهوما لعلاقة الإنسان بالطبيعة بدلا من الدين فعجزت عن ذلك لأن الأدوات التى اتخذتها فى هذا السبيل قصرت أن تقدم شيئاً ، ولقد جاءت الأديان لتطلع الإنسان على هذا الجانب، لأن ما أعطى الإنسان من عقل وفكر ووجدان لم يكن بطبيعته معداً لاستكناه هذا الغيب وكان قاصراً على اختبار الحياة .

ولقد فصلت الفلسفة وفلسفة العلم بين المادة والروح وبين النفس والجسد، وبين الطبيعة وما وراء الطبيعة وأعلت شأن الجسد ومكنت لها حيزاً كبيراً وقصرت على قناة واحدة من المعرفة هى الحواس ، وكذلك قصر العلم مجاله على المحسوسات والماديات فلما عجز عن فهم ما وراء المادة أعلن أن هذا العلم غير موجود ، ووصلت المغالاة فى هذا إلى أبعد مدى حيث أعلن الماديون أنه

لا توجد إلا المادة وان الحياة نفسها صفة من صفات المادة وكان معنى إنكار وجود الروح والنفس والمعنويات وما وراء المادة إنكار للخالق تبارك وتعالى وإنكار للوحى والنبوة ولعوالم واسعة كشف عنها الدين للإنسان .

بل وأصبح الحديث عن هذه المعانى يجرى تحت اسم غريب فيه معنى التحدى : ذلك ما يسمونه « خرافة الميتافيزيقا » .

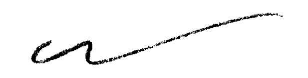
ولقد ادعت الفاسفة المادية أن مفهوم الروحية باطل وانه يتصل بالتخلف والجمود ، وأن مفهوم المادية ينطوى تحته التقدم والتطور .

وكان هذا كله من باطل الفلسفة الذى آثار الشبهات والشكوك وآثار مفهوم الإلحاد فى النفس الإنسانية .

ولقد قامت الفلسفات الماركسية والجدلية المنطقية والفرويدية ، كلها على فرضيات وظنيات تبين من بعد فسادها ، حيث سقطت نظرية المصادفة ونظرية مادية الكون ونظرية التوالد الذاتى وتقدم العلم إلى مفاهيم تختلف عن ذلك تماماً ودخل قانون الاحتمال بديلا لقانون الحتمية ، ومع هذا فان الفلسفات ظلت قائمة على تلك الاحتمالات والفروض والظنيات وما تزال .

بل أن الأمر بلغ إلى أبعد من ذلك فان معطيات العلم التجريبى اليوم تدحض الفروض التى قامت على النظرية المادية وظلت تروج لها عشرات السنين .

ومن هنا تجىء التفرقة بين العلم وفلسفة العلم فالعلم هو الحقائق التجريبية أما فلسفة العلم فهى تفسيرات مادية تقوم على فروض معظمها تغير وقايلها فى طريقه إلى التحول .



(٥)
التجريب والعلوم الإنسانية

تقول النظرية المادية فى دراسة الإنسان :

نحن ندرس الإنسان ونحلله كما ندرس الأميبيا أو الزلزال ندرسه من زاوية تقول أن الإنسان كائن مادى كيماوى وهو جزء من النظام المادى للطبيعة ، ولهذا فهو يجب أن يخضع للقوانين الطبيعية والكيماوية مثل الكائنات الحية الأخرى ، ومن زاوية أخرى نحن نعد الإنسان حيواناً (أى كائناً حياً) يعد واحداً من ملايين الكائنات الحية التى تعيش على سطح الكرة الأرضية » .

والواقع أن هذه الفرضية قد ثبت بطلانها فان للإنسان ميزات كثيرة هى من خصائصه الاجتماعية التى تفرق بينه وبين الحيوان ، وخاصة ما يتميز به من جانب العقل والبيان والعواطف ، وقد أشار العلم إلى تميزه فى مخه وجهازه العصبى تميزاً كبيراً جعله يختلف عن سائر الكائنات الحية .

وتلك قضية ضخمة وقف منها العلم المادى موقفاً قاسياً حين حاول تطبيق التجريب على الإنسان وتجاهلت تلك الجوانب المعنوية والروحية التى يتميز بها والتى لا تخضع للعلوم المادية .

وقد كشف الباحثون فساد هذا المنهج فى أكثر من نقطة :

(وحسبما أوردها الدكتور توفيق الطويل) كالآتى :

أولا : أن طبيعة الموضوعات التى تعالجها كلتا الطائفتين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية مختلفة متباينة ومن ثم لزم أن تختلف المناهج التى تعالجها كما تختلف القوانين التى ينتهى إليها كل منهما ، فقوانين العلوم الطبيعية دقيقة وعامة لا تتقيد بزمان ولا مكان وقوانين العلوم الإنسانية تعوزها الدقة والضبط ولا يمكن جعلها عامة غير مفيدة بظروفها وأحوالها لأنها لا تبرأ من الحالات الاستثنائية أبدا .



ثانياً : أن حرية الارادة البشرية تتدخل فى الظواهر الإنسانية وتتكفل بتغيير مجراها تغييراً قد يحصل من العسير إخضاعها لقانون على ثابت ومن هنا تيسر التنبؤ العلمى فى مجال العلوم الطبيعيـــة بمعنى أن يتكهن بالمعلومات متى أدركت عللها وهذا غير ميسور فى العلوم الإنسانية على وجه الدقة لأن سير ظهورها يمكن أن يغير مجراه بتدخل الإرادة البشرية وأحكام الناس تتأثر كثيراً بعوامل لا تتمشى مع منطق التعقل فتفسد على العقل ما كان يتوقعه .

ثالثاً : إن التجربة بلغت دوراً رئيسياً فى كشف القوانين الطبيعية بينما يتعذر إجراء التجارب فى مجال العلوم الإنسانية إلا فى نطاق ضيق الحدود .

. رابعاً : إن القوانين الطبيعية عامة صادقة فى كل زمان ومكان ، أما مقررات العلوم الإنسانية فتسير على عكس هذه القوانين إلى ظروف شخصية تاريخية .

خامساً : إن قوانين العلوم الإنسانية المزعومة ليست موضوعية خالصة فلا تكون صادقة بما هى كذلك ، فان الباحث فى هذه المجالات لا يستطيع أن يتجرد من أهوائه وميوله ومصالحه وهو ينظر إلى موضوعه الذى يتصل حتما بالإنسان من خلال عقيدته وثقافته وتقاليد وطنه ، ونحو هذا من عوامل تكشف نزاهته وتجعل بحثه ذاتياً ومتأثراً بالعوامل الذاتية على عكس الحال فى العلوم الطبيعية فان تجرد الباحث من الميل والهوى ميسور عند علاج موضوعاتها ومن هنا كان البحث العلمى موضوعياً وليس ذاتياً .

سادساً : إن الدقة فى قوانين العلوم الطبيعية مرجعها إلى صورتها الرياضية لأنه من الميسور أن تقاس مقاديرها الكمية،أما العلوم الإنسانية فيتعذر إخضاع موضوعاتها لهـذا الضبط الكمى ويستحيل تصويرها بالمعالادت الرياضية الدقيقة .

أدى هذا كله إلى القول بأن قوانين العلوم الإنسانية لا تكون قط عامة لأنها لا تخلو من الحالات الاستثنائية التي لا تدخل في طبيعتها .

ومن هنا فان مفاهيم النفس والأخلاق والاجتماع على النحو الذى قدمته نظريات فرويد وسارتر ودوركايم غير صالحة للتطبيق على الإنسان لأنها قامت على مفهوم الفلسفة المادية القاصر الذى لا يعترف بالروح أو المعنويات أو النفس .

سابعاً : يقول الدكتو فؤاد الأهوانى أن العلوم الإنسانية تدرس الإنسان من حيث هو فرد ومن حيث هو عضو فى جماعة وترجع صعوبة البحث فى العلوم الإنسانية إلى أمرين هما التضاد بين الحتمية وحرية الاختيار وتباين هذه العلوم .

(٦)

ونصل من هذا كله إلى جملة حقائق :

أولا : أثبت العلم أن كل ما كنا نتصوره ضدين متقابلين : المادة والطاقة ليس صحيحاً فليس هناك طاقة ومادة وإنما هناك طاقة مجمدة تأخذ صورة المادة ومادة مشعة تأخذ صورة الطاقة والانتقال من إحدى الصورتين إلى الأخرى مستمر ومتواصل ويخضع لقانون ثابت والأصول الأولى للمادة أو الطاقة هى الإشعاع والإشعاع أحد عناصر الضوء فالضوء فى الأصل نقطة الابتداء فالوجود كله مشتق من الضوء ، وهكذا تؤدى بنا الطريق إلى قيام جوهر واحد وقوة واحدة .

ثانياً : الإسلام يربط بين المادة والروح ويوحدهما على أساس أن المادة واسطة لتحقيق السعادة للفرد والأمة فى الدنيا والأخرى أى أن المادة يجب أن يخضع لقواعد الإنسانية والإخوة والإحسان .

ثالثاً : أن العقل محدود ، وان أداة المعرفة والإيمان ليس العقل وحده بل هناك حقائق كونيـــة لا يستطيع العقل أن يدرك كنهها مع إدراكه وجودها .

رابعاً : إن الفلسفة تحاول تفسير الحياة ، وكل مذهب فلسفى فيه جزء من الحقيقة وفى كل منها نقص يذكر بالعميان الستة الذين فحصوا « الفيل » فكل منهم يتحدث عما لمس وليس بينهم من رأى الفيل كله .

خامساً : عجز العلم عن إعطاء إجابة شافية على السؤال الخالد :

لمـاذا نوجد على ظهر الأرض ؟

وقد أجاب عنه الدين الحق « الإسلام » فالذين لا يؤمنون بالعلم وحده لا يصلون إلى شيء يقول ليونارد دارون : إن العلم لا يمكن أن يتخذ مرشداً للسلوك وإن كانت هناك إرادة حرة فلابد أن يكون هناك شيء خارج نطاق العلم .

سادساً : قررت الحقائق العلميـــة الأصلية : أن العلوم الطبيعية لا تستطيع أن تدرك كنه الدين فى مجالاته الروحية والاجتماعية لأن العلوم الطبيعية مادية لا تستطيع أن تمـارس غير المحسوس والملموس وفى نظام الكون وفى طبيعـة النفس البشرية إحساسات ومشاعر لا تخضع للمحسوس .

ومن هنا نصل إلى غاية هذا البحث كله وهو خطأ إخضاع المفاهيم الاجتماعية والنفسية والأخلاقية وغيرها من الدراسات الإنسانية لمناهج العلوم الطبيعية والتجريبية أو محاولة إخضاع الظواهر الاجتماعية لقوانين معينة على نمط قوانين الطبيعة فى علم الفيزيقا .

سابعاً : هناك قاعدة أساسية فى الإسلام تربط بين العلوم المختلفة هى وحدة المصدر الربانى للعلوم ولنواميس الكون ولرسالات السماء وهى تقوم على الإيمان بالوحى وتؤكدها الفطرة والعلم . فإذا انقطع العلم عن قاعدة الإيمان بالله والوحى والغيب فقد فقد شطره الأصيل وعاش بشطره المضطرب ، إن غاية رسالة الإنسان هى الاستخلاف فى الأرض وقد جاءت رسالة الدين بالنظام الاجتماعى .

وجاءت بالصورة الميتافيزيقية الكاملة لتغنى الإنسان عن البحث فيهما ولتفتح له طريق البحث التجريبى فى الكشف عن ذخائر الأرض والمسلم ليس فى حاجة إلى فلسفة العلم التى تحاول أن تكشف الطبيعة وما وراء المادة لأن الله تبارك وتعالى قدم له هذا المفهوم كاملا ومن هنا فإن علوم النفس والأخلاق والتربية والاجتماع لها منهجها الخاص ولها جوانبها غير المادية .

ثامناً : تأكد الآن وجود عالم الغيب أمام رجال العلم التجريبى :

وقد أثبت العلم التجريبى أن الجزء الخفى من العالم اليوم أكبر بكثير من الجزء الذى تدركه الحواس ، قال بذلك لويس أجاسير الذى رفض نظرية دارون حيث قال : إن تأثير البيئة والتغيرات المناخية والجيولوجية على الكائن الحى راجعة بالدرجة الأولى إلى إرادة الله الخالق لكل شىء .

وإن تلك التغيرات فى البيئة التى تصنعها إرادة الله الخالق يمكن أن تسبب انقراض الأنواع وفنائها ولا تأتى بالأنواع الجديدة فكل نوع من الحيوان أو النبات لا يعدو أن يكون حلقة فى سلسلة أراد الله أن يخلقها فوق هذه الأرض لحكمة عنده لا نعلمها ولغاية فى علمه لا ندركها .

وهذا لا ينافى قط العلم والبحث العلمى وفلسفة العالم الطاهر من مكر الشياطين ، هذا ما قاله أجاسير عام ١٨٥٩ عندما نشر دارون كتاب أصل الأنواع .

ولقد ثبت بعد قرن ونصف من الزمان رجحان عقل أجاسير فإن مكونات الذرة اليوم ومكونات الفضاء الكونى من نجوم ومجرات وسدوم ومذنبات وإشارات لاسلكية تأتى من حيث لا ندرى وأجسام مضادة وغيرها يثبت يقيناً أن الخفى من الكون أضعاف ما تدركه الحواس .

تاسعاً : قال كرسى موريسون رئيس أكاديمية العلوم فى الولايات المتحدة .

إن تحطيم ذرة التون التى كانت تعد أصغر قالب فى بناء الكون إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب والكترونات طائرة قد فتح مجالا لتبديل فكرتنا فى الكون والحقيقة ، تبديلا جوهرياً ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادى وإن المعارف الجديدة التى كشف عنها العلم لتفتح المجال لوجود « مدبر » جبار وراء ظواهر الطبيعة وإن الاكتشافات الحديثة قد بعثت النتائج التى وصل إليها الفلاسفة (المثاليين) والتى كانت قد حجبتها تماماً نظريات دارون،أن وجود الخالق تدل عليه منظات لا نهاية لها وتكون الحياة بدونها مستحيلة .

إن وجود الإنسان على ظهر الأرض والمظاهر الفاخرة لذكائه إنما هى جزء من برنامج ينفذه بارىء الكون » .

(٧)
ما تجاوزه العلم التجريبى

وبالجملة فإننا نستطيع أن نقول أن ما تجاوزه العلم التجريبى من نظريات المادية كثير :

* قامت النظرية المادية على أساس فكرة دارون ولم تعد فكرة دارون الآن قانوناً علمياً ، وقامت الماركسية على أساس فكرة دارون وتبين فساد

القول بأن الحياة كلها من عقلية ونفسية وسلوكية صادرة من (مادة عضوية) هذا الفرض لم يعد من الحقائق العلمية . وقد انهار أساس المادية والفلسفة المادية من أساسه .

* إن نظرية أن الاقتصاد أساس الحياة الإنسانية فى كل اتجاهاته لم يعد أساساً حتى عند الماركسيين أنفسهم وقد نقضت هذه الفرضية وتراجع الماديون وقالوا أن هناك عوامل كثيرة لتفسير التاريخ .

* إن نظرية التطور الاجتماعى المطلق التى قال بها هربرت سبنسر امتداداً لنظرية دارون البيولوجية قد سقطت الآن بنظرية أخرى مضادة .

كذلك سقطت فكرة الجوهر الفرد بظهور نظرية النسبية مفهوم الطاقة والمادة الذين يتبادلان مكانهما .

* سقطت نظرية الحتمية وأصبح العلم يعتمد نظرية أخرى تقوم على اللاحتمية ولكن أصحاب النظرية المادية والفلسفة العلمية ما زالوا يفترضون الحتمية فى نظام المجتمع هدفاً للقضاء على إرادة الفرد والتزامه ومسئوليته التى جاء بها الدين الحق .

* سقطت نظرية أن المادة أصل الحياة وبدا أن هناك عوامل أخرى وآفاق أخرى روحية وغيبية ومعنوية ولكن النظرية المادية ما زالت تعتبر نظرية ميتة .

* إن كلمة مادة لها ثلاث مفاهيم : فى باب الأخلاق مقابل روح .
: فى باب العلوم ضد مفهوم طاقة .
: فى الفلسفة نقيض المثالية .

* بالعلم الحديث سقطت نظرية «أرسطو» بسكون الجوهر وسقطت نظرية

داروين — هكسلي التي قامت باسم التطور المطلق، وسقطت بنظرية هيجل التي قامت باسم التغير الدائم، وقد تبين أنه ليس هناك شيء مطلق، وليس هناك سكون مطلق أو تغير مطلق أو تطور مطلق إنما هناك ثوابت وهناك متغيرات، وإن هناك عالم ظاهر وعالم خفي لقد وصل العلم إلى هذا ولكن الفلسفة المادية مازالت تفرض مفاهيمها التي استمدت من فرضيات للعلم سقطت وتجاوزها العلم في سبيل تقديم نظرية للمجتمعات الإنسانية قوامها :

نسبية الأخلاق وربطها بالمجتمعات والعصور لإلغاء الالتزام الأخلاقي .
انكار الجانب الروحي المعنوي للإنسان .
محاكم الفلسفة الإنسانية بقوانين المادة والتجريب .
الدعوة إلى جبرية المجتمع وحتميته لإلغاء المسئولية الفردية .

* تبين فساد المنهج العقلاني كأساس لتفسير الحياة، بعد أن تبين أن مذهب العقلانية لم يستطع أن يصل الى معرفة العالم عن طريق الاستدلال العقلي أو المقدمات التجريبية، القائمة على المحسوسات، والواضح الآن أن العقل وحده غير قادر على الحكم إلا في مجال واحد هو المجال التجريبي أما فهم الحياة والوجود فإن ذلك قد تحقق عن طريق الوحي الإلهي الهادي إلى حقيقة الوجود.

وقد أصبح العلم اليوم يسلم لوجود ما ليس قائماً أمام الحس ، لقد أخذ العلماء يؤكدون أن العلم ليس كل ما في الوجود ، وقد اتسع التحقيق العلمي اليوم للمجهول، وأخذ العلماء يعترفون بأن الحقيقة كامنة وراء المظاهر وأن الكون ليس حقيقة في ذاته بل هو المظهر الوحيد للتعبير عن الحقيقة .

* تبين أنه لا صلة بين الحقائق العلمية والمذاهب الاجتماعية فالحقيقة العلمية تثبت في المعامل وتتصل بالمادة ، أما المذاهب الاجتماعية فهي نظريات تتصل بالإنسان والنفس والعواطف والوجدانات وأن اعتمادها على فرضيات العلم

يجعلها قاصرة فإن نظريات العلم تتغير مع الزمن ومن شأن ذلك أن يهز هذه النظريات وتستدعى تعديلها .

* تبين خطأ الاحتكام إلى العقول الباردة والعقول غير المؤيدة بالوحى وهدى السماء .

ذلك أن النظرية الإنسانيـة الأصيلة هى نظرة جامعة بين العقل والوجدان، متكاملة بين الروح والمادة فالعقل قد يندفع وراء أهوائه ولكن الدين هو الذى يعصمه من الزلل ، والدين وحده هو الذى يحفظ الطاقات التى سخرها العقل من أن تستخدم فى التدمير والإرهاب والاستعلاء والإفساد .

الباب الثالث

المسلمون والتكنولوجيا

أولا : المسلمون والتكنولوجيا .

ثانيا : محاذير فى وجه التصور الإسلامى للعلم والتكنولوجيا .

الفصل الأول

المسلمون والتكنولوجيا

يتقدم المسلمون اليوم تقدماً حثيثاً نحو التكنولوجيا العصرية بعد أن قطعوا مراحل متعددة فى تطبيق نتائج العلم التجريبى الذين شاركوا فى صناعته وساهموا فى بنائه وانمائه وهم اليوم حين ينقلونه الى محيطهم والى لغتهم انما يحققون للعلم رسالته الربانيه الأصيلة فإن الإسلام له مفاهيمه الخاصة فى استعمال العلم وفى صناعته فهو يجعله خالصاً لله مبرأ من الظلم عادلا شاملا للبشرية كلها لايعرض به الحضارة للاخطار أو يهددها للدمار والإنهيار وانما يؤدى بها الى الأمن فالعلم فى مفهوم الإسلام يعمل من أجل الأخوة الإنسانية والتقدم بمفهومه الجامع (معنويا وماديا) وهو مكفول بأمانه الله ووجهته الى الخير والسلام والإسلام لايقر الأوضاع القائمة التى تجعل العلوم أداة طيعة من أدوات الدمار والهلاك للضعفاء ولا أداة استعلاء وسيطرة للأقوياء ولايقبل أن يسخر العلم للاطماع الشريرة ولا لإرضاء النفوس الخبيثة كذلك فهو يدعو الى تحرير العلم من المفاهيم المادية التى تصرفه عن وجهته الحقيقية .

ويمكن القول بأن العصر الحديث قد شهد تقدما واضحا نحو تحرير العلم من مفاهيمه المادية ورده الى الطريق الأصيل وأن عشرات من العلماء فى الغرب قد اكتشفوا فساد الأرضية التى تحرك عليها العلم نحو المادية المطلقة بنظرية دارون واستطاع هؤلاء العلماء أن يقدموا مفهوما جديدا يمكن أن يوصف بأنه تحول واضح نحو المفهوم الإسلامى للقيم فى مقدمتهم : سير جيمس جينز وا . كرى موريسون ، والكسيس كاريل ، وجراهام كانون .

وقد كان أخطر ما كشف عنه هؤلاء العلماء هو فساد نظرية دارن التى اتخذت قاعدة للمفهوم المادى والإلحادى الذى سرى فى مختلف مجالات العلم والفلسفة الحديثة وكان له تأثيره الشديد على العلوم الإنسانية كالإجتماع والنفس والأخلاق .

كذلك فإن رصيدا طيباً من تقدير العلماء الغربيين لدور المسلمين فى بناء العلمى التجريبى والإعتراف بهذا العمل بدأ منذ ١٨٤٠ عندما ظهر كتاب فسنفلد الألمانى عن تاريخ الطب والعلم عند العرب وآخرها كتاب ميللى الفرنسى عام ١٩٦٦ عن العلوم عند العرب ومكانتها فى التطور العلمى العالمى .

ومن ذلك ما نراه من اعتراف وتقدير لأعلام العلم الإسلامى :

قال سخاو عن « البيرونى » أنه أعظم عقلية عرفها التاريخ البشرى .

قال هولمبارد عن « جابر بن حيان » لولا جابر لما قامت لعلم الكيمياء قائمة .

قول راشدال : ان استحقاق كلمة (بكالوريوس) جاء من لقب (بحق الرواية) الذى كان يمنح للطلبة بعد تخرجهم على يد الشيوخ المسلمين .

قال كاجورى : ان أروع مايدهش العقل هو صنع علماء المسلمين العجيب فى علم الجبر .

كذلك فقد أشار الباحثون الى أن هناك زهاء مليون مخطوطة لاتينية كتبت عند ما كان الفكر الأوربى لايزال عالة على الفكر الإسلامى ، وأن هذه المخطوطات كما يقول الدكتور أحمد سعيدان « موزعة على مكتبات أوربا ولاشك أن دراستها ستكشف لنا محتويات كثير من تراثنا المفقود وستجلو لنا مدى ماانتقل منه الى الغرب ابان النهضة الأوربية ، لقد ظلت أوربا من القرن الحادى عشر الى القرن السادس عشر تلميذة للفكر الإسلامى تدرسه وتفيد منه ولكنها كانت تتناوله بيد المقبل على الحياة فى حين كان الفكر الإسلامى



يصارع عوامل فناء كثيرة داخلية وخارجية شغلته حتى عن حفظ تراثه والمحافظة عليه » .

هذا بالإضافة الى آلاف المخطوطات العلمية العربية المبثوثة فى مكتبات الهند وايطاليا واستانبول وباريس ولندن ودمشق والقاهرة والأسكوريال فى ميادين الكيمياء والفيزياء والفلك والرياضيات والطب والهندسة والصناعات الدقيقة والمساحة وقياس الوقت وتطوير صناعة الورق .

٦ وفى مجال الكتابات العربية ظهرت مجموعة من الدراسات تكشف عن المفهوم الإسلامى للعلم :

الله يتجلى فى عصر العلم : نخبة من العلماء الأمريكين .

الإنسان والكوكب : زغلول النجار .

الطب فى محراب الإيمان : خالص كبحو

العلم يدعو الى الإيمان : كريسى موريسون

نماذج من الإعجاز العلمى للقرآن : أحمد عبدالسلام الكردانى .

آمنت برب السموات السبع والأرضين السبع : محمد السعيد كيره

نظرية داردن بين مؤيديها ومعارضيها : قيس القرطاسى

الانسان ذلك المجهول : اليكسيس كاريل

الاسلام فى عصر العلم : محمد أحمد الغمراوى

سنن الله الكونية : محمد أحمد الغمراوى

معجزة القرآن فى وصف الكائنات : حنفى أحمد

اعجاز القرآن فى علم طبقات الأرض : محمد محمود ابراهيم

(٢)

وقد كشف الأبحاث التى كتبها علماء المسلمين عن فساد النظرية المادية وعن هزيمة نظرية دارون وعن عدم ثبوت نظرية النشوء والإرتقاء . وقد كان بحث الدكتور زغلول النجار من أخصب البحوث التى قدمت فى السنوات الأخيرة فى هذا المجال للرد على أخطاء الكتابات العلمية المبثوثة فى المدارس والجامعات فى مختلف البلاد الإسلامية فى الرد على أخطاء الكتابات العلمية :

أولا : الإدعاء بأزلية العالم .

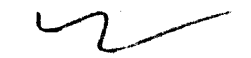
ثانياً : قوانين المادة والطاقة .

ثالثاً : الطبيعة وقوانين الطبيعة .

(أولا) افتراض قديم تنادى به زعماء الإلحاد وأدعياؤه على الرغم من أن العلم يثبت أن هذا الكون مستحدث فإن كانت له فى الأصل بداية فلابد أن ستكون له فى يوم من الأيام نهاية فمن المعروف اليوم أن العناصر فى مجرتنا قد تكونت فى الفترة من سبعة آلاف إلى ستة آلاف مايون سنة مضت .

وأن الشمس قد تكثفت على هيئتها الحالية منذ ستة آلاف مايون سنة وأن الكواكب الابتدائية قد تحولت إلى كواكب عادية منذ حوالى خمسة آلاف مايون سنة وأن الفصل الكيمائى فى أجسام الكواكب قد تم منـــذ أربعة آلاف وخمسمائة مليون سنة وأن الحياة قد ازدهرت على الأرض منذ ستمائة مليون سنة .

بينما يقدر عمر أقدم بقايا للإنسان على الأرض بأقل من مليون سنة كذلك ، فان قانون الطاقة المتاحة يثبت أن الكون لا يمكن أن يظل موجوداً إلى الأبد لأن الحرارة تنتقل دائماً فيه من وجود حرارى إلى وجود غير



حرارى والعكس غير ممكن وبذلك لابد أن سيأتى على هذا الكون وقت يتساوى فيه حرارة جميع الموجودات وحينئذ تنتهى العمليات الكيماوية والطبيعية وتنتهى تلقائياً الحياة .

ثانياً : قوانين المادة والطاقة :

من وضعها وهل يعقل أن تكون المادة الصماء هى التى وضعت القوانين التى تحكمها وتحد من حريتها وإذا لم يكن ذلك معقولا أفليس من الأفضل أن تسمى فطرة المادة التى فطرها الله عليها حتى يستقيم تعريفنا لها فمن تلك القوانين ما ينص على أن المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم وكذلك الطاقة (بينما يعلمنا الإسلام بأن الله جلت قدرته قد أوجدها كلها من العدم فقد كان سبحانه وتعالى ولم يكن شىء ويؤكد لنا العلم أن هذا الكون كانت له فى الأصل بداية وسوف تكون له فى يوم من الأيام نهاية) .

وعلى الرغم من كل ذلك نرى هذين القانونين للمادة والطاقة يرددان فى مختلف الكتب وهما بمنطوقهما الحالى يتعارضان تعارضاً كاملا مع روح الإسلام وعقيدته ويمكن أن يستقيم منطوق هذين القانونين بجملة تصحيحية بسيطة كما يلى :

وفى حدود طاقة الإنسان : المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم وكذلك الطاقة ، أما قدرة الله تبارك وتعالى الذى أوجد كل شىء من العدم فلا تحدها حدود وربما كان أكثر العلماء المسلمين الذين كتبوا هذين القانونين أو تحدثوا عنهما مؤمنين تماماً بهذا العلم ولكنه التقليد للكتابات الغربية والنقل الحرفى .

ثالثاً : الطبيعة وقوانين الطبيعة :

ما هى الطبيعة وما هى تعريفها :

يختلف العلماء فى تعريف الطبيعة فمن ينادى بأنها الصفات الأساسية للأشياء ومنهم من يقول بأنها القوى الطبيعية التى تسبب ظواهر العالم المادى ، وهنا يبدو واضحاً أنه قد يكون من الأفضل أن تسمى (فطرة الله) التى فطر الأشياء عليها أو أنها مجموع القوانين التى وصفها خالق الكون وأودعها المادة الصماء وكل الأحياء وعلى أساسها يدور الكون كله فى أدق دقائقه إلى أعظم وحداته وفى ذلك يقول أحد علماء الأمريكيين أن الطبيعة لا تفسر شيئاً فى الكون وإنما هى نفسها بحاجة إلى تفسير ، فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين ، وكيف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة حتى أن العلماء يستطيعون أن يستنبطوا منها قوانين علمية .

والحقيقة أن إدعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنه قد كشف تفسير الكون — ليس سوى خدعة لنفسه — فانه قد وضع بهذا الإدعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة ثم يريد — ومن المستحيل — أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض فقد صار حتى علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التى خلق بها الحياة .



(٣)

ومن أخطاء الكتابات العلمية الإدعاء : بأن أصل الحياة عملية مادية بحتة بمحض المصادفة وهو إدعاء كثر ترديده مؤخراً حتى قال الكاتب الروسى (أوبارين) أن أصل الحياة تفاعل كيمائى حدث بمحض المصادفة دون تخطيط مسبق .

ويقول الدكتور زغلول النجار : أنه منذ مطلع القرن الحالى والمحاولات العديدة تبذل لإستحداث الحياة من مركبات صناعية لها نفس التركيب الكيمائى للخلية الحية ولكن باءت كل المحاولات بالفشل وذلك لجهل العلم التجريبى بسر الحياة ذاتها .

وفى جسم الإنسان ألف مليون خلية فى المتوسط تتجدد منها كل ثانية من عمره ١٢٥ مليون خلية تقريباً ، بمعنى أن خلايا جسد الإنسان تتجدد كلها مرة كل عشر سنوات وهذا يعنى أن عملية فناء الجسم المادى تستمر ولكن يبقى الإنسان فى الداخل كما كان من قبل بقدراته الذهنية ومواهبه المختلفة وعمله وحافظته وصفاته الشخصية المميزة وعاداته وأمانيه وأفكاره وعواطفه تبقى كلها كما كانت دون أن تتأثر بتبدل جسده التدريجى . انه يشعر أنه نفس الإنسان الذى وجد منذ عشرات السنين ولا يحس بأن شيئا من حقيقة وجوده قد تغير ، وهذا المثل وحده كاف ليقطع بأن فى الإنسان شيئاً آخر أخطر من هذا الجسد هو الذى يحدثنا عنه الإسلام بأنه الروح ولما كانت الروح أمرا غير عادى فلا يمكن للعلم التجريبى أن يتمكن من التعرف على حقيقة كنهها .

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى)

ولا يمانع الإسلام من أن يقوم العلم التجريبى بالإجابة على جميع التساؤلات الخاصة بالبحث فى أصل الحياة وكيف بدأت .

(قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)

ولكن يلزمنا الإيمان بما يقتضيه المنطق بأن هذه المادة الصماء لا يمكن أن تكون قد تحولت الى مادة حية بمحض ارادتها أو بمجرد المصادفة ولاريب أن المحاولة التى يقدمها « العلم » عن نشأة الحياة على الأرض وتطورها هى محاولة قائمة على فروض ودلائل وليست خاضعة لتجربة معملية أو مشاهدة

حسية مباشرة أو غير مباشرة فكيف يمكن أن تكون حقيقة ثابتة وقد تكون صحيحة أو لا تكون وعلى ذلك فمن الخطأ اشاعتها بين الناس على أنها حقيقة مؤكدة ومن الضلال استخدامها بطريقة شيطانية لهدم معتقدات الناس وإيمانهم خاصة أن أدلتها فى معظمها محل جدل كثير .

وعبارة (البقاء للأصلح) عبارة مبهمة ، هل المقصود بها الأصلح للحياة من حيث القدرة أو من حيث المواءمة مع البيئة أم كلاهما ، مع أن كثيراً من المخلوقات التى عاشت لآماد طويلة كانت ضئيلة الحجم دقيقة البنية ولم يمنعها ذلك من أن تعمر ، واذا كان المقصود بالأصلح : الأنسب للبيئة فماذا عن الكائنات التى تموت بالحوادث الطارئة أو بواسطة الأمراض الداهمة أو عن طريق التلوث أو الافتراس بواسطة غيرها من الحيوانات أو الاصطياد بواسطة الإنسان وهكذا نجد الكتاب المسلمين نقلوا كتابات الغرب عن العلم بما تحمله فى طياتها من خلفياتها المادية منكرة لا تؤمن بغير المادة .

والواقع أن الحقائق الكونية العليا هى أمور غيبية لا سبيل للإنسان فى الوصول اليها بفكره المجرد ولا بوسائل العلم التجريبى المحدودة ، وهنا تبرز ضرورة رسالات السماء الى الأرض وينتفى الإدعاء الباطل بأن العلوم تقف فى مواجهة الدين لأن العلوم التجريبية تتعامل مع المادة والدين فوق المادة .

وحقيقة الأمر أن العلوم المادية وسيلة الإنسان للتعرف على خالقه من خلال تعرفه على عظمة الكون ودقة صنعه ووحدة بنائه وهى تؤكد على وجود الله وعلى حقيقة الغيب وعلى حاجة الكون فى كل لحظة من لحظات وجوده الى رحمة الله ورعايته وعلى حقيقة الآخرة وحتميتها .

وهذه كلها أمور تنكرها الكتابات العلمية المعاصرة وتتجاهلها ويجب أن يكون واضحاً فى الأذهان الفارق العميق بين إدراك الأشياء ومعرفة حقائقها .



إدراك الأشياء يقف عند حدود الوقائع الحسية وهي ليست الا واجهة تكمن وراءها حقائق لا تستطيع حواسنا ادراكها فالأمر المراد دراسته لا يمكن مشاهدته مشاهدة كاملة ، أو بعض أجزاءه .

وقد لا يشاهد على الإطلاق ولكن يمكن الاستدلال عليه بآثار يستطيع الإنسان ادراكها فى تجارب قابلة للإعادة ووسيلة الإنسان فى ادراكها هى حواسه التى يؤكد العلم التجريبى على أنها محدودة ومن أمور الكون مالا يمكن ادراكه بالحس المباشر أو غير المباشر ولكن يمكن الاهتداء اليه بوجود شواهد قرينة منطقية تكفى فى الاستدلال على صحة الدعوى بوجوده رغم عدم التمكن من تجربة ذلك كلياً أو جزئياً أو تجربة أثاره مباشرة . وهذا ما يعرف بالاستنباط .

وحدود العلوم التجريبية متمثلة فى حدود العقل البشرى وقدرته على الاستنباط السليم .

ولاريب أن الإنسان فى مشاهداته وتجاربه وملاحظاته محدود بوجوده على الأرض فى نقطة محدودة من الفضاء الكونى وفى فترة زمنية معينة مما يجعل كل قياساته واستنتاجاته نسبية محدودة بحدود مكانه وزمانه ومادته (أى طبيعة جسده) وقدراته أى طاقاته .

فالمكان والزمان والاتجاهات والحجم والكتلة والكثافة والسكون والحركة والبطء والسرعة والفراغ والامتلاء ووجهات النظر عند الإنسان كلها نسبية ، وهذا يجعل استنتاجات العلم التجريبى لا تعدو أن تكون مظهراً خارجياً للحقيقة كما يراها الإنسان من موقعه وليست الحقيقة ذاتها ويجعل النظريات العلمية فروضاً قياسية محضة حتى المبنى منها على المشاهدة أو التجربة المباشرة .

كذلك فإن فى تمكن الإنسان من التعرف على عدد من السنن الكونية

على الرغم من حدود حسه وقدراته ونسبية زمانه ومكانه لاشارة الى دقة هذا الكون وأحكام صنعته وثبات نواميسه وليست إلى قدرة الإنسان فى التوصل بجهده منفرداً الى الحقيقة المطلقة .

فالعلماء فى دراستهم للكون المادى بالمشاهدة والاستنتاج فى عمليـــة من الاختبار والرصد والتتبع ثم معالجة تلك الاختبارات الحسية بالقوى العقلية انما يتخذون من الكون المادى ومافيه (من ظواهر ونواميس ومخلوقات) معلماً لهم وهادياً لأفكارهم .

ونظراً لاتساع دائرة العلم بشكل مذهل أصبح من المستحيل على انسان بمفرده أن يلم بكل المعارف ولا بمجال واحد منها الماما كاملا فاضطر الانسان الى التخصص فى زوايا محددة من مجالات المعرفة التى لاتـكاد تحصى أو تعد .

وقد أصبحت العلوم التجريبية معارف جزئية والعلم الجزئى ليس فى مقدوره أن يجيب عل تساؤلات الإنسان الشاملة . وهذا يؤكد حاجته الى علم أكبر من علمه وأشمل .

ويعرف العلم أحياناً بأنه حالة ذهنية ونفسية يرى بها الإنسان عالمه المحيط به أثر تباين الثقافة ، وظروف النشأة والأحوال الذهنية والنفسية .

ولما كان الإنسان يمر طوال حياته بظروف نفسية وذهنية متغيرة قد يعتريها حالات من النشاط أو الركود الرضى أو القنوط ، الهدوء أو الاضطراب ، الثبات أو التغير فإن استيعابه وعطاءه فى مجال تخصصه الضيق يتباين بتباين ذلك كله .

ومن هنا فإن قصر الكتابة العلمية على الجانب المادى فقط كانت سبباً فى الدوران بها فى دائرة الحس الإنسانى المجرد وهى أصغر دوائر المعرفة فى هـذا الكون الذى يتميز فى كثير من أموره بأنه غيبى لايمكن اخضاعه كلية للنهج

العلمى واحتباس الفكر العلمى فى حدود الإطار المادى إلبحث إعاقة عن الانطلاق فى آفاق أكبر وأوسع .

وقد اتخذت الفلسفات المادية من الاستنتاجات الخاطئة (فى العلم) مبرراً لها فى انكار الله (تبارك وتعالى) وانكار الخلق ونبذ رسالات السماء والتهجم عليها والكفر بالآخرة .

وأخطر أخطاء الكتابات العلمية هى وقوفها عند حدود المادة ، والادعاء بأزلية المادة والطاقة فى (قولهم) المادة لاتفنى ولاتستحدث من العدم وكذلك (الطاقة) . ودعوى أزلية الكون وانتفاء الخلق ونسبة كل شىء فى هذا الكون الى الطبعية وقوانينها وبالتالى عدم جواز إرجاع أى أمر فيه الى أسباب فوق الطبيعة ومن ثم نكران الخالق .

(٤)

يركز العلماء المسلمون على ضرورة إعادة كتابة تاريخ العلوم من وجهة نظر إسلامية ويضع الدكتور زغلول النجار مخططاً مستنيراً فى هذا المجال يجب أن يكون بين يدى كل باحث : يقول :

١ ــ التأكيد على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والعمل على تطهير الكتابات العلمية من أية إشارة يمكن أن تشكك فى ذلك من قريب أو بعيد فى غير مساس بالمنهج العلمى ذاته أو حجر على العقل البشرى فى انطلاق للتعرف على هذا الكون وسننه .

٢ ــ التأكيد على قيمة العلم فى الإسلام والدعوة إليه والإقرار بأنه فريضة على كل مسلم ومسلمة ، فالإسلام يطالب العقل البشرى بالنظر فى هذا الكون والتأمل فى بديع صنعه لأنه بذلك يتعرف على خالقه ويستخلص شيئاً

من السنن الكونية التى تمكن من عمران الأرض والآيات القرآنية التى جاءت فى هذه المعانى قد جاوزت السبعمائة آية .

٣ — إبراز عظمة الكون وكل مافيه من مخلوقات (جماداً ونباتاً وحيواناً وإنساناً وغامات وظواهر) والتأكيد على أن هذا الكون الشاسع المحكم البناء لايمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه وإنما لابد له من موجد قد أوجده وهو الذى يرعاه .

فالاحتمالات الرياضية للمصادفة فى نشأة الكون معدومة فعلا مما يجزم بأن الكون لايمكن أن يكون قد تواجد إلا بتدبير مسبق ولا أن يستمر فى وجوده إلا برعاية خالقه .

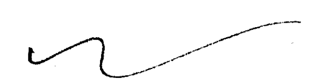
٤ — التأكيد على أن هذا الكون المتناهى فى الاتساع مبنى على نفس النظام من الذرة إلى الخلية الحية إلى المجموعة الشمسية ثم أن مكوناته على تباينها يمكن ردها إلى لبنات أربع : هى المادة والطاقة (فى مختلف صورها بما فى ذلك الجاذبية) والزمان والمكان وقد توصل العلم إلى أن المادة على اختلاف صورها ترد فى أصلها إلى غاز الهيدروجين (أخف العناصر المعروفة) وأن الطاقة بمختلف أنواعها والجاذبية لابد أن يلتقيا فى شكل واحد للطاقة وبأن الطاقة والمادة شىء سواء وبأن الزمان والمكان شىء متواصل ، وبذلك تتحلل مركبات الكون المعلومة لنا إلى شىء واحد لانعرف كنهه ولكن يمثل الوحدة العظمى التى تجرى فى هذا الكون كله وإن دل ذلك على شىء فإنه يدل على وحدة الخالق سبحانه وتعالى .

٥ — أن هذا الكون ليس أزلياً فقد كانت له فى الأصل بداية وأنه لايمكن أن يكون أبدياً لأنه لابد أن سيكون له فى يوم من الأيام نهاية ، والعلم بمختلف تخصصاته يؤكد على ذلك .

٦ — التأكيد على أن العلم فى جوهره هو محاولة جادة للوصول إلى الحقيقة وعلى ذلك فلابد لكل مشتغل به من التدرع بصفات الأمانة والدقة والرغبة الصادقة فى التوصل إلى المعرفة ، وعلى أن البحث العلمى المتميز بالإخلاص هو نوع من الجهاد الذى مايقوم به الإنسان من عمل أو قول أو تفكير هو صورة من صور الطاقة التى تسجل بدقة فائقة فى الفضاء الكونى ، وهذا وحده يكفى للتأكيد على أن الإنسان محاسب لامحالة عن كل عمل يأتيه وكل كلمة ينطق بها وحتى عن النية تتردد فى قلبه ولاتخرج إلى حيز الوجود وهو دليل كاف على حقيقة الآخرة .

سابعاً ـ إذا كان من الناس من يمكنه تحويل أفكاره بأكملها إلى إنسان آخر على بعد غير عادى وبدون استعمال أية واسطة مادية ظاهرة ، وهذا يعرف بالاستشراف ويفسر بأمواج خاصة تصدر من المخ وتنتشر بسرعة فائقة ، اذا كان هذا يتم بين انسان وانسان فهل يستحيل بين الله وانسان يختاره لذلك .

ثامناً ـ التأكيد على أن القرآن يقدر مسئولية الإنسان عن حواسه وعقله ويأمر باستخدامها فى البحث عن المعرفة وهو ينهى عن الغفلة ويحارب الجمود على الآراء الخاطئة الموروثة ، ويحرم الحكم بالطعن والهوى ، وهو ينشر العلم اليقينى ولذلك يطالب دائماً بالبرهان ويأمر بتأسيس الأحكام على الدليل العقلى الذى لايقبل النقض وهو فى ذلك واضع المنهج العلمى التجريبى ومؤسس أخلاقيات العلم .



الفصل الثانى

محاذير فى وجه التصور الاسلامى

للعلم والتكنولوجيا

إن العلم الغربى الحديث يواجه عدداً من المحاذير والأخطار والتحديات يجب أن تكون موضع نظر العلماء المسلمين وهم فى طريقهم إلى وضع «منهج العلم الإسلامى» الذى يتقدمون به للبشرية اليوم وهم فى طريقهم إلى امتلاك الطاقة والتكنولوجيا وفى سبيلهم لإنشاء منظور إسلامى أصيل للعلم والحضارة.

أولا : قامت النظرية المادية على أساس فكرة دارون ولم تعد فكرة دارون الآن قانوناً علمياً وقامت الماركسية على أساس فكرة دارون بمفهوم أن الحياة كلها من عقلية ونفسية وسلوكية صادرة من (مادة) عضوية ، هذا الأساس قد أصبح أوهى من خيط العنكبوت إذ لم يعد من الحقائق العلمية. ان أساس المادية والفلسفة المادية والماركسية قد انهار من أساسه لقول العالم البريطانى الشهير جراهام كانون أستاذ علم الحيوان بجامعة مانشستر فى كتابه (نظرات فى تطور الكائنات الحية).

الواقع أن عنوان كتاب دارون خطأ وان به نقصاً واضحاً ولكن لم يفطن لهذا الخطأ أحد والكتاب منجم بالتخبط المبالغ فى التفكير وبكثير من الحشو الذى لايمت إلى موضوعه بصلة. إن مايدعيه الدارونيون من أن المصادفة المحضة هي الأصل في التطور قول ساذج لايتفق مع الملاحظة والرأى

السليم إذ أن الكائن الحى قوة موجهة كامنة فى نفسه هى التى تتحكم فى التطور وتقود خطاه .

ويختم كانون كتابه بقوله : إن جميع الأدله التى حللتها لتؤدى إلى وجهة واحده لاتنثنى عنها ، فهى تنتهى إلى فكرة وجود قوة موجهة هادية مستقرة فى أعماق كل كائن حى تتحكم فى تطوره وتوجيهه لا عن طريق التغيرات العشوائية وانما عن طريق تحولات مختارة ، وعلى أية حال فقد برزت فكرة تلك «القوة الموجهة » سمها كيفما شئت ، المرة تلو المرة منذ عهد أرسطو حتى أيامنا هذه ولكن هل من دليل موضوعى على وجودها ، هل من سبيل إلى فهمها فى نطاق معارفنا الكيماوية والفيزيقية ، أن هذا لن يتضح إلا إذا رجعنا إلى الوراء فدرسنا. أول صور الحياة الباكرة أو فى المواقع الطريقة المحتملة لنشأة الحياة نفسها ، أنها شىء قد يكون فوق طاقة تلك الإلهية الواهيه التى يسمونها العقل البشرى ولكنها بكل تأكيد فوق أفق هذا الكتاب وخارج نطاقه » .

وبالرغم من وضوح هذه الآراء ومثلها فى تدمير نظرية دارون والمفهوم المادى كله فإن هناك إصراراً من الماديين على إخفائها والاستخفاف بها ومايزالون يواصلون القول بأن الإنسان حيوان متطور عن القرد ويحاولون ربطه فى سلاسل تطورية متكلفة — كما يقول الدكتور زغلول النجار — تضم ما أسموه القرد الإنسانى والانسان القردى والإنسان الأول متجاهلين إن الانسان ليس إنساناً بجسده بل بانسانيته المتميزة بالعقل والبصيرة والارادة والاختيار والقدرة على التعبير . كما يحاولون تزييف ماتكشف عنه الحفريات ويصطنعون طرقاً ماكره فى تزييف الحقائق إبقاءاً على الثمرات التى حققتها النظرية المادية واستمراراً لها لإفساد المجتمعات البشرية .

وبالرغم من كل هذا ماتزال القضية تعرض فى الكتب المدرسية وتدرس لطلابنا الصغار على أنها إحدى الحقائق العلمية .

يقول بورن كيرتن أستاذ علم الحياة القديمة بجامعة هاسنكي فى كتابه (ليس من القردة) الذى نشر فى لندن ١٩٧٢ : أن أصل الانسان منفصل تماما عن القرد منذ زمن طويل وان الانسان لم ينحدر عن القرد بكل تأكيد. وأكد كيرين أن عملية التطور عملية موجهة ولا يمكن أن تكون عملية عشوائية أو نتيجة للمصادفة .

ثانياً : يتبين الآن للباحثين والفلاسفة أن هناك أبعاداً واسعة لدراسة الحضارة والمجتمعات والانسان منها البعد الخلقى والبعد الجمالى وأن التكنولوجيا ماهى إلا واحداً من هذه الأبعاد ويقول جاك برك أن من أخطاء الحضارة الحديثة استعلاء البعد التكنولوجى وحده دون الأبعاد الأخرى ، إذ أن القاعدة الانسانية لتقدم المجتمعات لابد أن تتضمن كل هذه الأبعاد ، وهذه القاعدة على علاقة بنمو وتطور وانعكاس هذه الأبعاد فى المجتمع الاسلامى وحين يتم تطور بعد آخر أو بمعزل عن الأبعاد الأخرى يحصل التناقض الذى يؤدى إلى الجمود أو إلى القلق والانقسام والازدواجية التى تلاحظها فى تصرف الانسان الحديث ، لذلك فإن التقدم الحقيقى هو التقدم الذى يتم فى نمو هذه الأبعاد مجتمعة بشكل متساو . وليس صحيحاً ان التطور التكنولوجى هو الذى يؤثر فى الأبعاد الأخرى فإن كل بعد له إيقاعه الخاص وطريقه الخاص فى النمو .

ثالثاً : من الحقائق الخطيرة التى يجب أن تكون تحت أبصار علماء المسلمين وباحثيهم : أن المسلمون أعطوا أوربا « المنهج التجريبى » لتحييها فلما عادت أوربا إلى الشرق أعطت المسلمين « المنهج الأرسطى » لتميتهم ، فأخذ المسلمون منهج أرسطو فعزلهم عن حقيقة الاسلام التى اقامها بالمنهج التجريبى حين رفض المسلمون منهج أرسطو ثم رفضه الأوربيون ونقدوه بما نقده به المسلمون من قبل ولقد جرت محاولات خطيرة على أيدى لطفى السيد وطه حسين لرذ المسلمين إلى المنهج الأرسطى واقناعهم بكل مايريدون من السوء بهم من حيث لايشعرون



وفى نفس الوقت الذى كانوا يقدمون أحدث نظريات الفكر الغربى فى كل أمور الحياة ،كانوا يقدمون نظرية أرسطو فى مجال العلم والثقافة وهى مما رفضه الفكر الغربى ، وأرادوا أن يردوا المسلمين إليها غشا وتضليلا حتى لايجدوا الطريق الصحيح إلى النهضة .

ثالثا : كشف الله تبارك وتعالى للإنسان عن القانون الدينى وترك للانسان الكشف عن القانون الطبيعى لحكمة عليا أرادها تبارك وتعالى : وبما أعطاه من إرادة وطاقات وامكانات . ذلك لأن الانسان ماكان يستطيع أن يهتدى إلى القانون الدينى والمنهج الأخلاقى بنفسه ، يقول الدكتور عماد الدين خليل : فى مجال الطبيعة والأشياء لم يشأ الله تبارك وتعالى أن يكشف للانسان عن قوانينها لأن هذا يعنى إهمالا لطاقات الانسان الخلاقة وقدرتها على الكشف والابتكار ولو حدث أن وجد الانسان نفسه فجأة أمام القوانين الطبيعية على حقيقتها لألغيت إذن وبشكل محتم كل قدراته ومحاولاته ولأسلم نفسه لكسل واتكالية ،ولم يرد الله للإنسان أن يقع فى أسارها . وقد كشف الله تبارك وتعالى عن القانون الأخلاقى والمنهج الدينى ليكونا إطاراً للكشف عن القانون الطبيعى وأساساً لحركة العمل فيه .

ولذلك فإن القانون الدينى أساس ثابت والقانون الطبيعى جزء وحركة . وهما متداخلان وليست هناك ثنائية بينهما على النحو الذى قال به ديكارت وغيره فتمزق الفكر الغربى وأنشطر وأحدث ذلك الخلل والاضطراب الذى تقاسيه البشرية اليوم تحت اسم (أزمة الانسان الحديث) .

لقد كان تصرف الانسان القاصر ،وعدم قدرته على فهم الاستيعاب والتكامل فى القانون الدينى هو الذى دعا إلى هذا الانفصام .

ولقد كشف العلم الحديث عن جانب خطير من القانون الطبيعى وعلم البشرية أن أساس الطبيعة هى الحركة وليست المـــادة ـ الذرات بأشكالها

المتناهية فى الصغر تتحرك فتعطى الشكل المادى للاشياء ، وهذه الذرات هى الأخرى تتشكل وفق حركة معجزة فى كيانها الداخلى فكأنه تسبيح أيدى لكل قوى الطبيعة لرب الملكوت ولكأنه إيماء عجيب للإنسان المعاصر بزيف هذه الثنائية التى قسمت خلق الله إلى قسمين وأقامت بينهما جداراً من التباعد والصمت وأن الحركة — هذا المعنى الكبير — هو أساس الوجود المادى تماما كما هو أساس الوجود الحيوى ، هذا ما كشف عنه العلم فى الأخير ، وما هـــذا « الكشف » إلا جانب ضئيل مما يمكن أن يكشف عنه المستقبل القريب والبعيد ومن يدرى فلعل العلم سيقود الانسان يوما إلى الحقيقة القائلة بأن الدين هو العلم والعلم هو الدين وكلاهما الحق اعتماداً على الناموس الواحد الذى يحكم الجميع .

رابعاً : ليس هناك تعارض بين العلم والدين فى الحقيقة ولكن التعارض بين إنسانية العصر الحديث وتكنولوجيا العصر الحديث. يقول الدكتور صبحى الصالح ، هذا التعارض المتوهم بين القيم والإنسانية من نحو والقيم التكنولوجية من نحو آخر هى نتيجة إنفصام العلاقة بين الإنسان والروح ، وقد نشأ هذا من قسوة الإجحاف بحق الإنسانيات ومن وطأة الهجوم عليها والاستخفاف بها ذلك أن التقدم العلمى وقد وفر للحياة الإنسانية نعماء ولكنه سلب الإنسان فى الوقت نفسه المزية الوحيدة الحقيقة التى تتيح له الإفادة مما أعطاه عندما صرفه طرفا شديداً عن قيم الروح .

أن التغيرات السريعة المذهلة فى الميدان التكنولوجى الدقيق تشكك فى قيمة المعارف الإنسانية دون استثناء حتى لتوشك أن تخضع الأدب شعراً ونثراً والفلسفة تأملا وفكراً لضروب معقـــدة من الرياضيات وإن كل المحاولات التى جرت لتضييق الهوة بين العلم والأدب قد باءت بالخيبة والاخفاق لأنها إتسمت بالتحيز الظاهر للثقافة التكنولوجية على حساب الثقافة الإنسانية

وبإلحاحها على طبع مناهج التعليم كلها بالطابع العلمى (البحت) واستغنائها الكلى عن جميع التأملات الأدبية والفلسفية وهذا يعنى قمة الغرور والتعالى الذى لا يطاق بالقيم العلمية البحتة ويرى (ابانيانو) إن الانسان اخترع الآلات للوفاء بحاجاته وللسيطرة بها على المادة ولكنها ما لبثت أن تمردت عليه بعد أن كانت خاضعة له وصارت غاية بعد أن كانت وسيلة .

خامساً : بعد أن تبين فساد هذا الصراع وما جره على العلم والحضارة والمجتمعات فان البشرية تتطلع إلى مفهوم متكامل يجعل المفاهيم العلمية متحركة فى إطار القيم العقائدية والإنسانية والروحية حتى تعود للإنسان أصالته وفطرته الجامعة بين الروح والمادة . والإسلام يمتاز بالقدرة على تقديم هذا المنهج بحيث تكون القيم العلمية والتكنولوجية متحركة فى إطار التقوى والعدل والرحمة. لقد بلغ الإنسان قمة العمل فى البحث فى قمم الجبال وفى أعماق المحيطات وفى تحويل رمال الأرض وترابها إلى مصانع ومبانى وبقى عليه أن يحرك كل هذا فى إطار ربانى ومضمون إنسانى وأسلوب أخلاقى حتى لا يكون ذلك على حساب عقله ونفسه وكينونته ، ولقد قدم له الاسلام الوسائل التى تمكنه من التعرف على الطريق الصحيح وهو تعمير الأرض وفق شريعة الله وتسخيرها لخدمة العقيدة وفق منهج الله . واتخاذ اكتشاف القوانين واستنباط الوسائل وتسخيرها لخير الناس ومنفعتهم وبحيث يكون معرفة سنن الله فى الكون وعمارة الأرض وتسخير كل ما خلق الله لحماية العقيدة والتمكين لدينه فى الأرض . ولما كان العلم عبادة فلا ينبغى أن يستخدم فى إفساد العقيدة والأخلاق أو يكون أداة ضرر وفساد وبغى وعدوان .

سادساً : إذا كان العلم الحديث قد أذعن أخيراً إلى الاعتراف بقصور العلم البشرى وعجز العلماء عن الكشف عن أسرار الطبيعة حتى يقول أحدهم : (انشتين) : ولاتزال هذه القضية الغامضة دون حل بل أنه لا يمكن الجزم بوجود حل نهائى لها فلا نزال بعيدين عن الحل الكامل اذا وجد وهو

شيء بعيد الاحتمال ، وإذا كان العلم قد أذعن أخيراً فى الاعتراف بقصوره فإنه يجب أن يعلن عن اسلام لوجه لله كاملة فيعلن فى وضوح وصدق بأن الله تبارك وتعالى هو خالق كل شيء ، وهو صانع المادة والعلم ، وقد خلق العالم بمشيئة من العدم ، وأن علم الله تبارك وتعالى محيط بالكائنات (بالأشياء الصغيرة والنواميس الكلية والقوانين العامة) وأن يعلن توحيد الله عن ملابسة المادة مع الحرص على تجاوز هوة مذهب وحدة الوجود الذى لا يفرق بين الله والعالم ، وأن يعلن بأن العقل لا يمكن أن يستقل بمعرفة الله ولا أن يهتدى إليه إلا إذا صحبه فى تطوافه إلى تلك الغاية قلب يتلقى عنه كل مدركاته .

ثامناً : أن تتقرر مصادر المعرفة فى التصور الاسلامى فى جانبيه :

١ — الوحى فى الجوانب التى يعلم الله سبحانه أن الانسان لا يهتدى فيها إلى الحق من تلقاء نفسه وهى مؤثرات ثابتة من عند الله المحيط بكل شيء علماً .

٢ — العقل البشرى وأدواته فى تفاعله مع الكون المادى نظراً وتأملا وتجربة وتطبيقاً فى الأمور التى تركها الله العليم الحكيم لاجتهاد هذا العقل وتجاربه بشرط واحد هو الالتزام العام فيها بالأصول العامة الواردة فى شريعة الله بحيث لا تحل حراماً ولا تحرم حلالا ولا تؤدى إلى الشر والضرر والفساد فى الأرض .

تاسعاً : التماس الذاتية الاسلامية والأصالة الاسلامية برفض كل تصور أو نظام مصادم للتصور الاسلامى ومناقض له ، حيث أن للأسلام تصور كامل شامل تنبثق منه فلسفة تعليمية تربوية قائمة بذاتها ومتميزة من غيرها دون أن يمنع ذلك من الاستفادة بالوسائل والتجارب البشرية الناجحة بحيث لا تصادم هذا التصور ولا تناقضه ومن منطلق هذا يرفض تلقيح العلوم الاجتماعية بالصيغة والأفكار الاسلامية ويرفض تلقيح القوانين الوضعية بالشريعة



الاسلامية مع العمل على استنباط مجموعة جديدة من العلوم الاجتماعية تتفق مناهجها والإسلام لاحلالها محل العلوم الاجتماعية الغربية .

عاشراً : الاستجابة لحاجة العالم إلى حضارة توازن بين حاجات الجسم والعقل والروح ولا تقصر التقدم على الماديات فقط ولما كان الاسلام هو المؤهل لهضم حركة التقدم الهائلة الحالية وتوجيهها لصالح الانسان وسعادته الدنيوية والأخروية وتسييرها فى إطار يصالح الانسان كانسان دون التفرقة بسبب اللون والملبس أو البلد أو الدين أو غير ذلك فان الخطوة الأولى لذلك هى تصحيح مفهوم العلم كمقدمة إلى بناء حضارة إنسانية تقوم على تكريم الانسان والعناية به .

إن كتب النصوص الحالية حول معظم العلوم الاجتماعية الطبيعية هو من وضع مؤلفين غربيين وتمثل وجهة نظرهم فى الكون وترمى إلى إبراز معتقداتهم وتخلو هذه الكتب من وجهة النظر الاسلامية ومكانة الله تبارك وتعالى الحقيقية فى ترتيب النظام الكونى .

وتلك هى الخطوة الأولى لبناء منهج التكنولوجيا الاسلامية التى تفترض ترجمة العلوم كلها إلى اللغة العربية وتحركها من داخل دائرة المفهوم الاسلامى ووجهة النظر الاسلامى فيما يتعلق بالكون والعالم وقيم الحياة ولابد من وضع ذلك المنهج الاسلامى الأصيل فى مكانه الطبيعى من مناهج التعليم ليكون أساساً لبناء المنهج الاسلامى فى مجال التكنولوجيا وعلى هذه القاعدة يمكن بناء قاعدة تكنولوجيا إسلامية قوية فى العالم الاسلامى .

* * *

آفاق البحث

مدخل ... ٣

الباب الأول : الإسلام والعلم ... ١٧

الفصل الأول : العلم قبل الإسلام ... ١٩

الفصل الثانى : مفهوم العلم فى الإسلام ... ٢٤

الفصل الثالث : نقطة البدأ : قل انظروا ... ٣١

الفصل الرابع : ماذا قدم المسلمون ... ٣٩

الفصل الخامس : أصول المنهج العلمى : طلب الحق ... ٤٦

الفصل السادس : موقف الغرب : المعقوق ... ٦٠

الفصل السابع : سبق علماء المسلمين ... ٧٤

الباب الثانى : العلم فى قبضة الغرب ... ٨٩

الفصل الأول : العلم فى قبضة الغرب ... ٩٠

الفصل الثانى : الداروينية ونظرية التطور ... ١١٨

الفصل الثالث : سقوط نظرية دارون ... ١٢٣

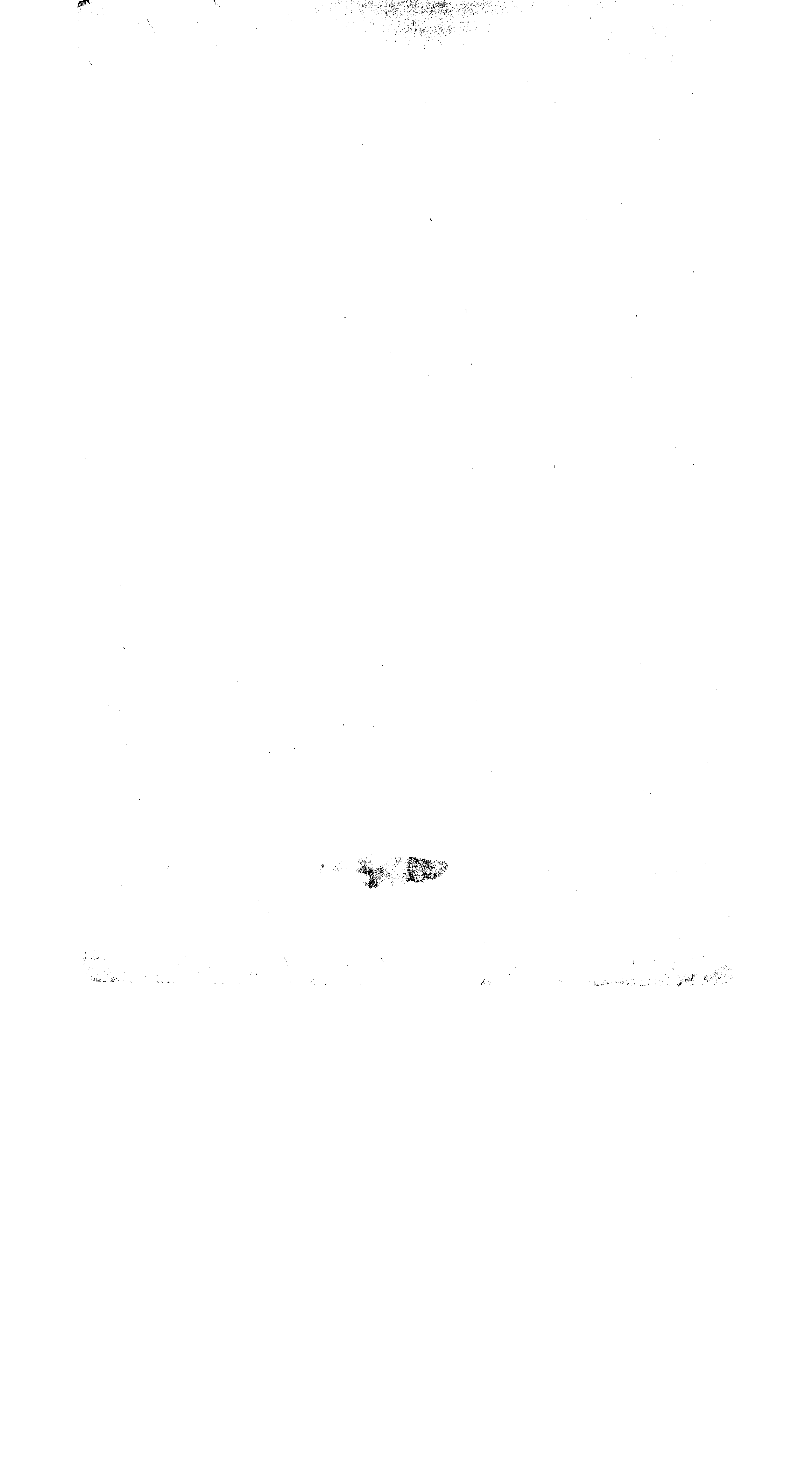
الفصل الرابع : العلم والنظرية المادية ... ١٣٥

الفصل الخامس : علم الغرب فى ضوء الإســلام ... ١٤٥

الباب الثالث : المسلمون والتكنولوجيا ... ١٦٣

الفصل الأول : المسلمون والتكنولوجيا ... ١٦٥

الفصل الثانى : محاذير فى وجه التصور الإسلامى ... ١٧٨



دار الاعتصام

